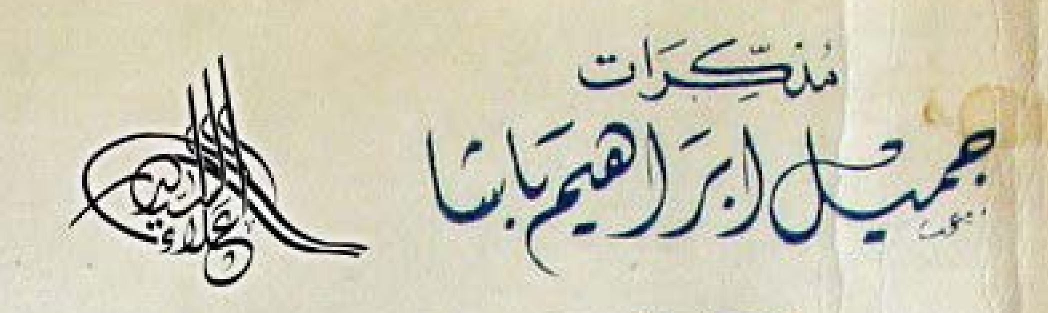


نضال الأحرار

في سبيل الاستقلال

١٩٥٩

مطبعة الضاد

كلمة تقديم واقرار

لكلِّ إنسان فلسفةٌ في الحياة، يعيش بالهامها وتعاليمها، ويقضي العمر لأجلها. والآن وصاحب «كتاب المذكرات» رحمه الله، قد انتقل في ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٨، الى العالم الثاني، أتساءل في نفسي، ماذا كانت فلسفته طول حياته؟

ان مذكراته تشير الى ناحية واحدة من هذه الفلسفة. أما بقية النواحي، فلم تشر اليها المذكرات. بل يظهر، ان المرحوم أبقاها مكتومةً لعلمه أنها محفوظة وباقية في قلوب رفقاء جهاده، وأصدقاء صباه وشيخوخته. ونحن وقد صحبناه، وعرفناه، وعاشرناه، عرفنا بقدر ما أمكن، تلك النواحي التي كوَّنت فلسفة حياته، وجعلته الصديق الوفيّ والجندي الباسل.

إن السنين التي قضيتها معه، منذ سار في الحركة الوطنية، حتى غادر هذه الدنيا الفانية، مكنتني أن أعرف لحياته ثلاثَ نواحي هي ركن فلسفته العملية.

الناحية الأولى، تمثل دورَ شبابه، وكان طابعها «تمتع بالدنيا وملذاتها وغامر في الحياة بقدر ما تستطيع، وما فاز باللذات إلا الجسور».

والناحية الثانية، تمثل دورَ رجولته وعزّ عمره، وكان طابعها «اعمل لاخوانك واصدقائك كما تعمل لنفسك، فالصداقة ان لم تكن للوفاء والاخلاص، والمساعدة والمعاضدة، فلا قيمة لها، ولا قيمة للانسان».

والناحية الثالثة، تمثل دور نضوجه وشيخوخته، وطابعها «من لم يسعَ لخير أمته وتحرير بلاده، واستقلال وطنه، فليس انساناً يستأهل الكرامة والاحترام، ولا مواطناً يستحق الحرية والحياة».

هذه هي النواحي التي عرفتها عن حياته وفلسفتها. وتتراءى لي براهينها وأدلتها وحوادثها، وانا اقرأ مذكراته لاكتب كلمة التقديم لها. ولذا لم اتردد في تسطير هذه الكلمة إقراراً بما عرفته، ولأدل القارىء الكريم، على

ان ما سيجده في سطور صفحات المذكرات ، ليس كل نواحي فلسفته ، بل سيجد القسم الأخير السعي والنضال لخير الأمة العربية ، واستقلال بلادها، وجمع كلمتها ووحدتها ، وكفى .

وتبعاً لما عرضت ، خطر لي سؤال آخر ، أحببت ان اجيب عليه ، وهو : هل وفق جميل الى ما سعى اليه وأراده في الدور الأخير من حياته ؟

ان حوادث مذكراته تنبئك بالحقيقة . انه سعى وأدّى واجبه كجندي ، يطيع ويعمل ولا ينتظر النتائج . انه آمن بما عمل ، ولكن لم يبتغ المكافأة ولا التقدير .

وإثباتاً لما تقدم ، فقد حصر مذكراته بما يخصه هو كوطني وحزبي لم يتعدّ الحدّ . وكان كل ما فيها مرآة صادقة تريك شخصيته وتعبر عن آرائه ، وأعماله ، والطريق التي سلكها لبلوغ اهدافه .

ولما كان المرحوم قد عاد من الآستانة (في عام ١٩١٩) ووهب نفسه للدفاع عن بلاده ، ولمقاومة الأجنبي بسائق تربيته ونشأته ومسلكه ، فقد انضم الى الحركة الوطنية ، وكان من أعضاء الكتلة الوطنية ولولب حركتها ، ومن أركان الحزب الوطني ، الذي حمل رسالة الكتلة . ولما انتهت سنة ١٩٤٧ ، بما انتهت اليه من احداث ، وشعر بتعب جسمه ، وانتهاء عمله ، انسحب من الميدان السياسي الحزبي ، ولازم اعماله الشخصية ، ليؤمن كسب عيشه وهناءة عائلته .

أجل ، لقد ترك السياسة ، ولكن لم يترك رفقاءه ، ولا اصحابه ، بل كان يزورهم ، ويستمع إلى آرائهم ، ويناقشهم سلباً او ايجاباً ، ويشير عليهم بما يرتئيه ، ويشجعهم على دوام النضال .

ولما لازمه المرض ، وانقطع إلى البيت ، رأى ان يدوّن ما مرّ به وبالبلاد السورية ، من احداث ووقائع ، كان له فيها مشاركة ونصيب وافر ، سواء في ميادين المقاومة ، او في ميادين القيادة . فكتب مذكراته بصورة

خاطفة ، وبلسان صريح ، وتسلسل مختصر حسبما أوحتها حافظتـه ، وحسبما طبع عليه من صراحة واقتصار في الكلام . وهي في مجملها ، ان تثبت اشياء كثيرة من حقائق التاريخ ، فأهم ما تشير اليه ، ان الحركة الوطنية ما كانت لتوجد ، وتقوى ، وتنمو ، وتتسع حتى تغلبت على قوى الانتداب ، وهدمت ما بناه الاستعمار ، وحررت البلاد من جنود فرنسا واعوانهـا وعملائها وموظفيها ، لولا رجال الرعيل الأول ، ولولا نضالهم الدائم ، وثباتهم الجبار ، وقيادتهم الحكيمة ، وضحاياهم الكثيرة ، وتفانيهم في عقيدتهم القومية .

وإذا كانت حركة الرعيل الأول ، قد اتسمت بالمقاومة والهدم والشغب وإثارة القلاقل ، فانها لم تغفل ولم تجهل ، ما يجب عمله بعد تحرير الوطن لاجل البناء والنهوض ، والتحرر من ادران الماضي ، وما يقتضي للاستقرار والطمأنينة ، وايجاد مجتمع حر ناهض ، يتمتع بالعـدالة والتنظيم والرفاهية الاجتماعية ، وما يلزم لأحياء القومية وبعث مقوماتها ، وجمع كلمة العرب وتوحيد اقطارهم ، واعادة مجدهم ، ولكن الزمن لم يكن زمن بناء ، ولكن زمن هدم واجلاء ، ولا بناء ونهوض قبل الجلاء والاستقلال . وكأنه يقول ان ما كتبته جرى لي ، وكان لي فيه رأي ، ليدل على ان حياته لم تكن ملكاً له ، وانه تحمل المسئولية عن رضى في كل عمل قام به .

والذي يفهم من اقواله ، انه في بدء نشأته العسكرية ، كان من حزب الاتحاديين من عام ١٩١٢ الى عام ١٩١٩ . ولما عاد الى حلب ، وكانت سوريا « قد انفصلت عن الامبراطورية العثمانية وسلطانها » حضر اليها لانقاذ اخيه الدكتور حسن فؤاد ، من قبضة الانكليز الذين حبسوه في فلسطين ظلماً وعدواناً ، بتهمة انه حكم بالاعدام على جاسوسة صهيونية ، كانت تتجسس على الجيش لحسابهم ، وعدلاً حكم وحسناً فعل .

ويذكرني اثناء وجوده في حلب ، انه اطلع على ما كان يريد ان يفعله « المرحوم السيد شاكر شباني ، والمرحوم السيد عبدالقادر كتخدا ، والمرحوم الحاج فاتح المرعشي ، والمرحوم سامح الميتنابي ، والمرحوم الطبيب قاسم الصباهي ، والمرحوم مصطفى برمدا » وكلهم كانوا من انصار الاتراك ، يعملون

لمعاونتهم والتفاهم معهم ، فانضم اليهم ، وسافر الى تركيا ، وقابل « اتاتورك » وسعى للاتفاق معه على محاربة الفرنسيين ، ولكن الاتراك لم يفعلوا .

ولما زالت الحكومة الفيصلية ، واحتلّ الفرنسيون سوريا ، وجيء بالمرحوم ابرهيم بك هنانو في منتصف آب سنة ١٩٢١ الى حلب ليحاكم بتهمة قيامه بالثورة ، امام المحكمة الفرنسية ، فحوكم وبرّىء ، وبخروجه من السجن وضع جميل ابرهيم باشا نفسه تحت تصرف الزعيم الثائر ، وبقي حتى توفي ابرهيم بك ، وانضم الى اخوان هنانو ورفقائه ، وناضل معهم ، ونفي وسجن وحوكم وحُكم عليه ، وانتخب نائباً عن جبل سمعان ثلاث مرات في عام ١٩٢٨ وفي عام ١٩٣٦ وفي عام ١٩٤٣ .

ويتضح للقارىء من خلال سطور المذكرات انه أراد من وضعها بيان حقائق الوقائع التي قد يجهلها الكثيرون من ابناء هذا الوطن ، الذين لم يسعدهم الحظ ، فعاشوا اما على هامش الحياة ، او بعيدين عن ساحات النضال ، او انهم لم يأتوا الى الدنيا بعد . كتبها ولسان حاله يقول لهم ، وللذين راحوا يدللون على جهادهم ويبيعون القومية والوطنية والوحدة في اسواق الانتهازية والشعوبية والحزبية : « مهلاً ! لا تقولوا اشياء يكذبكم بها التاريخ ، ولا تروووا اموراً يعرفها أهل المعرفة ، ولا تنكروا فضل من سبقكم ، فسوريا لم تنل استقلالها ، والوحدة لم تتحقق إلا على جماجم الشهداء ، وبسعي الاحرار ، ونضال الوطنيين الخلّص ، ووعي الشعب وايمانه بحقه والتفافه حول قادته ، فاذا انكرتم ذلك ، وادعيتم خلافه ، فلكم اليوم الذي تنكركم فيه الاجيال ، وتكذبكم الاحياء ، لأن للباطل جولة ، والتاريخ لا ينكر الحقائق ، والفضل لا يعرفه إلا ذووه ، والعمل الخالد لا تمحوه الاكاذيب » .

وختاماً أقول لبني قومي : ان مذكرات اخينا جميل بك ابرهيم باشا ، من خير ما يُقرأ ويقتنى ، وصاحبها من الذين يُثنى على صدقهم وصراحتهم وتفانيهم ووطنيتهم وطهارة يدهم ولسانهم ، فاقتنوها واقرأوها . والسلام على من اتبع الهدى ، وناضل ، وضحّى ، ومات عزيزاً .

حلب في ١٠ آذار ١٩٥٩

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

المقدّمة

تحتلُّ اليوم حياةُ كبار السياسيين المناضلين ، حيّزاً واسعاً في عالم السياسة ودنيا التاريخ ، لأنهم كانوا رائدي الجهاد ، وأقطابَ الحركات الاستقلالية البنّاءة ، ولأنّ كثيرين منهم ، بذلوا دماءهم الزكية ، في سبيل تحرير بلادهم ، وسيادة أمتهم .

والواقع الذي لا ريبَ فيه ، ان اولئك المجاهدين ، كانوا لسانَ امتهم الناطق ، ودماغها المفكر ، ويدَها العاملة ، وقد رافقوا ما تألّب على وطنهم من أحداث ، وصمدوا أمام ما قاساهُ من محنٍ وشدائد ، حتى استطاعوا ان ينتزعوا استقلاله ، ويضمنوا له العزّةَ والكرامة .

ولهذا ، فقد كانت سجلات معظم المشتغلين بالقضايا السياسية ، حافلةً بالأحداث العجيبة ، والمفاجآت الغريبة ، ومليئةً بآيات التضحية والفداء .

ولما كنتُ ، قد عملت بمنتهى الجد والاخلاص ، مع الزعيم السوري الخالد ابرهيم هنانو ، ومع رفاقه البررة الميامين ، على خدمة هذا الوطن الغالي ، وعلى إقصاء المنتدب عن ربوعه الطيّبة ، ولما كان الله قد حقق لنا تلك الأمنية الرائعة ، وأبعد عنّا آخرَ جندي أجنبي ، وأعاد الينا موطننا حرّاً طليقاً ، فقد خطرَ لي ، بعد أن اعتزلتُ السياسةَ ، أنْ اطبعَ كتاباً اودِعهُ مذكراتي في اهم ما مرّ على سوريا من الشئون السياسية ، والقضايا الوطنية .

وقد توخيتُ في وضع مذكراتي هذه ، اسلوباً واضحاً سهلاً ، يجعلك تقرؤها ، وكأنك تعيش في تلك الحقبة من حياتنا الصاخبة الثائرة ، المتّسمة بالمظاهرات والاحتجاجات والاعتقالات ، والمفعمة بالعناد والجهاد والبطولات .

ولا بدّ من القول ، إنّ هذه المذكرات ، لا تضمّ تاريخنا السياسي كله ، ولا تحيطُ به من جميع نواحيه ، ولكنها تسجّل بدقّةٍ وامانة ، واجبات وطنية قمتُ بها بنفسي ، او قام بها اولئك الرجال الخُلّص الذين ساعدوا

الزعيم هنانو في ثورته التحررية الجبّارة ، والذين بذلوا النفسَ والنفيس من اجل نجاح حركتنا الاستقلالية المباركة ، وأخصُّ بالذكر منهم السادة : عبدالوهاب ميسّر وابو عبده المصري وفتاح البيطار والحاج فارس البرمّي وابو ياسين الجاسر والشيخ عبدالوهاب طلس والحاج أحمد قباني وعمر واعظ .

وانه لمنَ الانصاف ، أنْ نذكر هنا ايضاً ، نخبةً ممتازة من رجالنا الاباة الطيبين ، الذين دعموا ثورةَ هنانو بالمال الوافر ، والعون المثمر ، وفي مقدمتهم السادة : عبدالوهاب ميسّر وأحمد بك المدرس ومحمد خليل المدرس واحمد خليل المدرس ونوري بك الجابري ، والحاج سامي صايم الدهر ومحمد سعيد الزعيم والحاج مصطفى شبارق والحاج أحمد الأسود والحاج سعيد الصباغ .

وهناك كثير من وجوه الأحياء والتجار والمزارعين واصحاب المطاحن والخانات وكثير من اخواننا زعماء الاحياء المسيحية ورجالها البررة الصادقين ، كانت لهم في دعم قضيتنا الوطنية وتأييدها يدٌ بيضاء تذكر لهم فتشكر . وحسبنا ان نعدّد منهم السادة : ميشيل صايغ « ابو مريش » وجرجي جبرا خوام وجورج عسّال وفرج الله هب الريح واخوانه وعبدالكريم فشخ واخوانه . فقد سار هؤلاء وابناؤهم ونصراؤهم وسكان احيائهم ، على مبدإ هنانو ، واخلصوا له الحب والولاء .

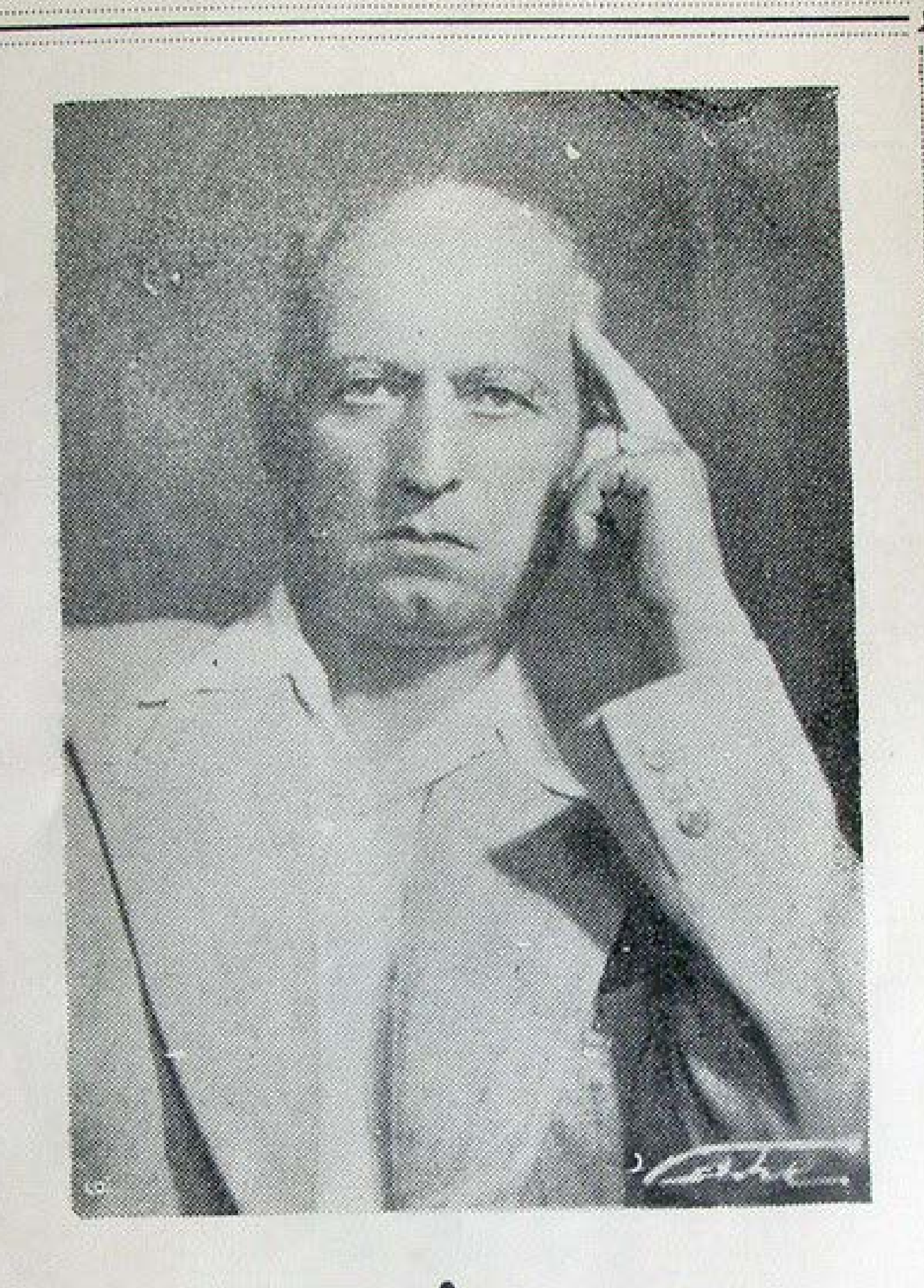
ولا ريب ، ان تكاتف الشعب حول رجال الكتلة الوطنية ، كان من اهم العوامل على قهر سلطان الاستعمار الغاشم ، يضاف الى ذلك ، ان المواطن السوري ، كان مثالاً رائعاً للشجاعة والتضحية والانسجام مع قادته ، يتقيد بما يرسمون له من خطط ، ويؤدي ما عليه من واجبات ، بمنتهى الصدق والحمية والاندفاع .

وبهذا استطاع هنانو ورفاقه البواسل ، أنْ ينتصروا في معركة الحقّ والحرية ، وان يبعدوا المنتدبين عن هذا الوطن العزيز الكريم .

وخلاصةُ ما يمكن ان يقال في هذه المذكرات ، انها تعرض بايجاز ، اهمّ الاحداث السياسية ، التي شغلت هذه البلاد مدة ربع قرن ونيّف ، والتي مهدت السبيل الى الوحدة بين القطرين العربيين الشقيقين : مصر وسوريا .

وفّقَ اللهُ هذه الامة ، الى ما تنشده من وحدة شاملة ، ومنعة وطيدة كاملة ، وهو عز وجل نعم المولى ونعم النصير .

جميل ابرهيم باشا



جميل ابرهيم باشا

صاحب هذه المذكرات



فهد ابرهيم باشا

نجل جميل ابرهيم باشا

صاحب هذه المذكرات



صاحب هذه المذكرات وحرمه وطفلهما فهد

قبيل الحرب العالمية الاولى

على أثر حرب البلقان عام ١٩١٢، بينما كنتُ جالساً في مقهى شاهين باشا بالمرجكي، جاءني الاركان حرب مصطفى وصفي، واليوزباشي مصطفى بكداش شقيق أديب بك بكداش، وجلسا معي، فدار الحديث بيننا عن الحرب، وما جرَّته علينا نحن العرب، من ويلات كنا في غنى عنها. هنالك التفت مصطفى وصفي وقال: نحن في مكانٍ لا يساعدنا على بحث هذه الامور، فلندع هذا البحث الى الغد، وليأتِ الأخ جميل بك، الى احدى غرف هذا الفندق المسمى «المقهى» وهناك نستطيع أن نبحث في هذا الشأن بوضوحٍ وجلاء.

وفي اليوم الثاني، جئتُ الى المقهى المذكور، فرأيتهم جالسين، ومعهم ملازم من أهل دمشق، وهو أحد أقرباء مصطفى وصفي بك. وبعد أن شربنا الشاي، دخلنا احدى غرف الفندق، واجتمعنا فيها، وشرعنا نبحث بشأن الالتحاق بحزب «العهد» لنتمكن من السعي لما ننشده من حرية واستقلال.

وقد تكلم مصطفى وصفي بك وقال: نحن منتمون الى هذا الحزب، ولا نرى حاجةً للمداورة وتحليفك اليمين، لأننا نعرف أخلاقك المتينة حقَّ المعرفة. وكل ما نريده منك، أن تمدنا بالانضمام الى هذا الحزب، وأن تسعى معنا لنيل ما هضم من حق بلادنا. ومما لا ريب فيه، أنك اكثر الناس خبرةً بأخلاق أهل حلب، وأنك من أسرةٍ عريقة ذات مركز كبير، يساعدنا على عملنا. ولسنا نشك قط، بأننا واصلون الى ما تصبو اليه نفوسنا.

فأجبتهم : اسمحوا لي أيها الرفاق ، أن أصارحكم بكل ما يكنه صدري بهذا الشأن ، وأحبُّ أن لا تفسروا قولي ، بأنني لا أريد استقلال بلادي . ويعلم الله ، أنني لستُ من اولئك الذين يرون منفعتهم الشخصية فوق المنفعة العامة ، ولهذا اقول بمنتهى الصراحة :

إنني لا أرغب في دخول الحزب ، لأنني أجـد هذا العمل مضراً بمصلحتنا نحن العرب . ولا يهمني اذا علمت الحكومة التركية بذلك ، فضغطت علينا ، وعملت على معاقبتنا . ان هذا الامر لا يهمني ابداً . ولا شك بأنكم تعرفون أنني عندما كنتُ ملحقاً باركان حرب جاويد باشا ، الذي عيِّن والياً على العراق فيما بعد ، قد استطعت أن أتأكد ، ان مثل هذا الامر مضر بمصلحة العرب ، لأن نظرة اولى الى حالة الدولة العثمانية ، والى ما هي عليه من ضعف ، ونظرة ثانية الى الخريطة ، التي تريكم موقع بلادنا على البحر الابيض المتوسط ، بهاتين النظرتين تعرفون جيداً الاسباب التي تدلنا على ضعف الحكومة العثمانية ، وعلى ما يمكن ان يكون موقفها منا .

وفضلاً عن ذلك ، فان وضعنا الجغرافي ، بالنسبة لانكلترا وفرنسا ، لا يمكننا من الاستقلال ، وتذوق طعم السيادة . فان قمنا نحن العرب ، بأول حملة عصيان ضد الحكومة العثمانية ، فان فرنسا عندئذ ستدخل بيروت وما يتبعها من بلاد الشام ، وستضع انكلترا يدها على العراق من جهة ، وعلى القدس وفلسطين من جهة اخرى .

والدليل على ذلك ، ما بذلته هاتان الدولتان من اموال في هذا الشرق ، فان المرء ، عندما يريد في بلدنا حلب ، أو في بيروت ، أو في دمشق ، أن يبيع عقاراً له ، لا يقبض ثمن عقاره إلا ليرات فرنسية . وهذا يدلُّ دلالة واضحة على أن أسواقنا مملوءة بالذهب الفرنسي ، وكذلك الامر في فلسطين والعراق ، فهناك الريال الانكليزي يملأ الاسواق ، فهل تظنون أن هذه الاموال تأتينا عن طريق صادراتنا ؟.. بالطبع لا ، ولكنها تأتينا عن طريق الدعاية ، والدعاية لا تقتصر على نوع معين ، فهل يستطيع أحدكم ان ينكر

تشكيلات الجزويت في بلادنا ، وما يقومون به من أعمال الدس والتفرقة بيننا وبين الأتراك ؟ لذلك أرى ، أن الزمن الحالي ، لا يساعدنا على القيام بهـذا العمل ، الذي أعده نوعاً من الخيانة ، لا أستطيع أن أشترك فيه وأحمل مسؤوليته ، لانني أراه خطيئة تسيء الى وطني بصورة عامة ، والى الاسلام بصورة خاصة .

ولا بأسَ من ان أصارحكم بأنني منتمٍ الى جمعية « وحدة الاسلام » ومع ذلك أرى ، أن اشتراكي في هذا المضمار ، خيانة واضحة لا تغتفر .

وعندئذ . التفت إليَّ مصطفى وصفي بك وقال لي : كل ما نرجوه منك هو الكتمان . فأجبته هذا أمر طبيعي ، ثم ودعتهم وانصرفت .

★

بعد هذا الاجتماع بمدة ، دُعيت لتناول طعام الغداء عند محمود كامل بك العنتابي . وكان في ذلك الوقت ، مستشاراً في وزارة الحربية . وكان يقطن داراً مع اسماعيل حقي باشا . فجلسنا الى المائدة فقدمني اليه . وبعد الغداء قال لي : إذا أحببتَ أن تستريح ، فان عندنا غرفة معدة لاستراحة الضيوف . ثم ضغط على جرس هناك ، فجاء خادم فأمره ان يهيء لي سريراً .

وعندما أفقت من نومي ، جاءني الى غرفتي وأراد أن يحدثني بأمر مهم - وأحب أن لا تستغرب ذلك ، لأنه كان رفيقي في الدراسة وصديقي الخاص فضلاً عن انه حلبي - فقال : ان الامر سرّي ، أرجو ألا يسمعه أحد. فوعدته بذلك فقال : يُعقد في فرنسا مؤتمر عربي يسعى ظاهراً الى استقلال البلاد العربية ، في حين أن بين المؤتمرين بعض المغفلين ، وان اكثريتهم يسعون لجلب فرنسا الى سوريا . وقد كلفني انور باشا ، ان اتصل بهؤلاء الاشخاص ، لافهم ما يريدونه ، وعندئذ نتوسط لدى الحكومة العثمانية ، لنتوصل الى اتفاق بهذا الشأن ، من غير أن نحدث ضجةً ما ، لان الاجنبي لنا بالمرصاد . وبذلك نكون قد عملنا على سلامة الامة العربية والامة التركية الاسلامية معاً .

فأجبته: لا أعرف أحداً من أعضاء المؤتمر، وليس لي معهم أي اتصال.

فقال: ألا تعرف شيئاً عن الاحزاب العربية المؤلفة؟ فأجبته لم أسمع بذلك إلا منك، وبأنه قــد تأسس هنا في استانبول «المنتدى العربي»، وقد سمعتُ ذلك من ابن خالي نافع بك القدسي، وفي مقدورك أن تتصل بهم عن هذا الطريق، فقال: سنرى. ثم دعاني الى زيارته في وزارة الحربية.

وعندما قابلته فيها في اليوم الثاني، سألني: هل فهمتَ شيئاً جديداً عما تباحثنا به أمس؟ فأجبته: كلا، فقد ذهبتُ بعد اجتماعي بك، الى داري، وها أنا أعود منها اليك. فقال: قد قابلتُ عبدالكريم الخليل، فوعدني بأن يتصل بهم، ولعلك تعرف هذا الشخص فتقابله، عسى ان نفهم منه شيئاً. فقلت له: لا أعرفه، وسأسعى الى التعرف به. ثم ذهبتُ ولم أعد اليه.

★

قرأتُ في الصحف، ان عبدالحميد الزهراوي، احد المؤتمرين، عُين عضواً في مجلس الاعيان، كما عُين شكري العسلي مفتش ملكية وهكذا..

وعندئذٍ انشغل بالي، لأنني لم أفهم من الامر شيئاً، فتوجهتُ الى الوزارة، وقابلت محمود كامل بك العنتابي، فعاتبني على عدم زيارتي له، فأبديت له بعض الاعذار. ثم فهمتُ منه كلَّ ما كنت أرغب في الاطلاع عليه، فقلت في نفسي: صحيفة وانطوت، ولا حاجة للبحث فيها. وقد تحققتُ انني كنتُ مصيباً في جوابي للرفاق المذكورين.



خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها

ونسيت هذه الامور، حتى اذا أعلنت الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤، وكنتُ يومئذٍ في حلب رئيساً للوازم المنزل المربوط مباشرة (بالكومندان) الاعلى، وقد جاءني في ذات يوم، اركان حرب اللوازم محي الدين الجمال وقال لي بعد ان مهد لكلامه بمقدمات: الآن أزفت ساعة العمل للتخلص من العثمانيين، فقم واعمل في بلدك لذلك، فأجبته بما سبق أن اجبتُ به مصطفى وصفي بك، ثم أوضحتُ له أموراً أخرى عن المؤتمرين في فرنسا، وما تم بعد ذلك.

وفي نيسان عام ١٩١٩، كانت الجيوش الانكليزية والفرنسية والايطالية قد احتلت استنبول. وكنت والميرالاي يحي حياتي في محطة السركجي في استنبول، اذ كان في وداع بعض رفاقه المتوجهين بحراً الى بيروت فدمشق. وكنا نتباحث في الوضع الراهن فقال: يظهر ان البلاد ستنال استقلالها، فالاخوان كلهم ذاهبون الى الوطن للدخول في الجيش، فما قولك؟

فقلت له: اذهبوا وقاتلوا. فنحن باقون هنا، لان بلادنا لن تستقل الآن، لان للانكليز والفرنسيين مطامع فيها. ولا أستطيع أن اقوم بعمل لا أؤمن به، ومن طبعي أن لا أتحمل العمل مع أجنبي، لا سيما بعد ان افترقنا عن دولة اسلامية، تربطنا بها روابط دينية، وقرابات، وعادات، وغيرها من الامور الكثيرة. فقال: لا أظن ذلك، فالاستقلال محقق مع بعض اعتبارات خاصة. فقلت له سنرى. ثم قلت له: اسمع يا حياتي بك، فسأفضي اليك بشيء سري، فان الاتراك سينقذون أنفسهم من هذه المصيبة. أما نحن، فلا أظننا قادرين على ذلك. فقال: من اين عرفتَ هذا الامر؟ فقلت له: من الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان رشاد، وما جرى بعد

ذلك، وهـــو ان مصطفى كمال باشا، اجتمع برجال الجيش، وفي طليعتهم عصمت وقره باكير وغيرهما، واتفقوا على ان يقوموا بعمل في وسط الاناضول. وقد تعهد لهم مصطفى كمال، بأن هناك من يساعدهم على تنفيذ خطتهم.

وقد عقد ذلك الاجتماع في دار صالح افندي فنصة في (بي اوغلو Bey Uglu) لان المذكور كان صديقاً للباشا.

وفي ايار ۱۹۱۹ كنتُ أتعاطى بعض الاعمال التجارية بوساطة صديق لي، كان له مكتب في السركجي. وبينما كنت في مكتبه، اذ دخل عليَّ الدكتور توفيق بك العطار، فرحنا نتحدَّث عن أحوال البلاد. وفجأةً قال لي: اعلمْ، ان الانكليز قد اعتقلوا أخاك الدكتور حسن فؤاد بك، وذهبوا به الى جهة لا نعرفها، فما عليك إلا ان تذهب الى حلب، لترى ما يجب عمله بهذا الصدد، فقد جئت اليك لاخبرك بهذا الامر.

فاضطربتُ لهـــذا النبأ، وقمت في الحال قاصداً نظارة الحربية، للحصول على اذن يمكنني من السفر. وعندما حصلت عليه، ركبتُ القطار فوصلت الى حلب في ١٩ أيار ۱۹۱۹. وكان أول ما قمت به، انني سألت أهلي عن سبب اعتقال اخي، فكان كل واحد منهم يجيبني بكلام يختلف عن كلام الآخر. وكل ما فهمته، ان اخي قد اعتقل، وانه في جهة مجهولة.

ثم سلموني رسائلَ، كانت تصلهم من السيد رشيد الحاج ابراهيم المقيم في حيفا، وأحـــد الاحرار المخلصين في فلسطين، ففهمت من تلك الرسائل، ان التهمة المنسوبة الى اخي، هي اخباره عن الجاسوسة اليهودية «ارازون». وبما انها قد شنقت نفسها، فقد عدوه قاتلها فحاكموه، وطلب الجنرال اللنبي الحكم عليه بالاعدام، ولكن المحكمة لم توافق على ذلك.

وبعد يومين، تلقينا من رشيد الحاج ابراهيم برقيةً مفادها، ان المحكمة قد حكمت عليه بالسجن عشر سنوات، وان الانكليز قد نقلوا أخي الى مصر، ففكرتُ في الذهاب الى هناك. وبعد ان تباحثت مع الاهل، رأيت ان ارجئ السفر، الى ان تأتينا معلومات واضحة عن وصوله.

وكان قد مضى على وجوده عام ونيف ، ونحن على ما نحن عليه ، لا سيما انني من الجيش التركي ولا فائدة من ذهابي الى هاتيك الربوع ابداً .

★

وفي شهر آب من عام ١٩٢٠ ، طالعتُ في الصحف ، ان القيادة الانكليزية قد قررت ، ان كل محكوم او موقوف في مصر ، سيرسل الى البلد الذي حكم عليه فيه ، فعلمنا ان المسألة قد سهلت الآن ، فكتبنا الى الصديق رشيد الحاج ابراهيم ، بأن يخبرنا فور وصول اخي الى حيفا ، لنذهب ونعمل على انقاذه .

وبعد خمسة ايام ، تلقينا من رشيد الحاج ابراهيم ، برقيةً مفادها ان اخي الدكتور حسن بك قد وصل الى القدس ، وهو مقيم في سجنها . وفي الحال رأيتُ أن اسافر اليه وقصدت دمشق .

وفي خلال المدة الواقعة ، بين عودتي من استنبول ، ووصول تلك المعلومات عن اخي ، كنا نعقد انا وشاكر بك الشعباني ، اجتماعات خاصة يحضرها بعض أعيان حلب . وفي ذات يوم ، دخل الآذن وقال لي : ان شاكر بك يريد مقابلتك ، فقلت له : ليدخل .

ودخل شاكر بك ، وعلى وجهه شيء من علامات الفزع . ثم أغلق الباب وراءه ، وقال : هل في الغرفة الملاصقة أحد ؟ فقلت له : لماذا ؟ فقال : لانني اريد ان احدثك بأمر سري . فقلت له : ليس عندنا أحد . فقال : لقد اتفقنا على ان نعمل مع الحاج فاتح افندي المرعشي ومصطفى بك برمدا والشيخ بدرالدين النعساني وفؤاد بك العدلي وسامح افندي العنتابي والطبيب قاسم بك السباهي وعبدالقادر افندي الكيخيا «والد رشدي بك» .

فقلت له وما الذي تريدون عمله ؟ فقال : قد اتضح انه ليس لهذه البلاد نصيب من الاستقلال ، فقد استولى الانكليز على فلسطين والعراق . ويبدو انهم ، بعد ان يتفاهموا مع الفرنسيين ، سيستولون على الشرق العربي ايضاً ،

وسيكون نصيب الفرنسيين الاستيلاء على سوريا ، ولهـــذا يجب ان نجد وسيلة تنقذنا من امكان دخول الفرنسيين ، ولو تمّ ذلك بمساعدة انكليزية خفية.

فقلت له : لقد تحقق ما كنت اتوقعه . ثم رويت له قصتي مع اركان الحرب مصطفى وصفي بك ، فقال : وهذا ما كنت اتوقعه ايضاً . اما الآن فعلينا ان نحول دون وصول الفرنسيين الينا ، فالمرجو ان تأتي في الساعة الثامنة من مساء الغد ، الى دار الحاج فاتح المرعشي ، لنتداول في الامر، فوعدته بذلك .

وفي الموعد المعين ، كنت في بيت الحاج فاتح ، وكان هناك مصطفى بك برمدا وسامح افندي وشاكر بك وصاحب الدار ، وانتظرنا نحو ساعة جاء في خـــلالها الطبيب قاسم بك وعبدالقادر افندي كيخيا ، وعندئذ تحدثنا عن الحالة العامة في البلاد حديثاً مطولاً استعرضنا فيه جميع الاحتمالات ثم اتفقنا على ان نجتمع ثانية في يوم الجمعة المقبل ، في دار فؤاد بك العدلي.

وقـد رأيت انا وشاكر بك ، ان نؤلف حزباً ، وننشىء جريدة ، وبالفعل فقـــد استأجرنا داراً في بستان كل آب ، وجمعنا الناس حولنا ، وافتتحنا المشروع بحفلة حضرها جمهور غفير من عيون القوم ، ووجوه الناس . وقـد داخل الحكومة الفيصلية الشك في امرنا ، فراحت تستطلع السبب ، ولا سيما انه لم تكن في ذلك الحين الامور حسنة بين آل جابري وبين شاكر بك ، وعلى الاخص بين هذا ، وبين احسان بك الجابري .

وفي يوم الجمعـــة ، تمّ الاجتماع في دار فؤاد بك العدلي ، بحضور الاخوان كلهم ، وعدنا الى البحث السابق . وكان خلاصة ما قلناه ، انه اذا اتفقت الحكومة الفيصلية مـع مصطفى كمال باشا ، اتفاقاً سرياً على جعل الفرنسيين بين نارين : نار الاتراك من جهة ، ونار العصابات العربية التي يقتضي تشكيلها حالاً ، من جهة ثانية ، في هذه الحالة يجب قبل كل شيء الاتصال بمصطفى كمال باشا ، واخذ موافقته ، ومن ثم المذاكرة مـع فيصل مباشرة .

ثم بحثنا عن الشخص الذي يقتضي ان يتصل بالباشا ، فقال شاكر بك ، لا يستطيع ان يقوم بذلك على ما يرام ، إلا « جميل » ، لأنه درس هذه الامور دراسة كاملة ، حين كان يتعقب العصابات في سالونيك . فوافق الجميع على رأيه ، وقرروا ما يجب ان أباحث الباشا به . فكتبنا ذلك مادةً مادة . وبعد ان اقسمنا اليمين على ان نعمل بكتمان ودأب متواصل ، ارفضّ الاجتماع .

وعدتُ إلى منزلي ، وكان الوقت صيفاً . وبعد القيلولة ، توجهتُ الى باب الفرج . وعندما وصلتُ الى مقربة من دار خالي نور الدين افندي القدسي رأيته يدعوني الى الدخول ، فدخلت وكان ينتظرني على رأس السلم ، وهو يقهقه ضاحكاً ، ها ها : يعني ؟ . .

« إذا جاء الفرنسيون كنتَ حميً لي ، وإذا جاء الاتراك كنتُ حميً لك » ، فدهشتُ في اول الأمر لكلامه . على اني ما لبثت ان تنبهتُ الى ما يعنيه ، فنظرتُ اليه وقلت له : لم افهم ما تقول . ثم ضحكتُ مثل ضحكته لأستر الأمر .

ودخلنا الغرفة ، وهو يردد قوله السابق ، فعلمتُ انه فهم ما قمنا به في اجتماعنا الذي عقدناه في صباح ذلك اليوم ، وانا قد اقسمنا اليمين ولكن من أين وصلته تلك المعلومات ؟ .

وكان من الطبيعي ان انكر ، فأصرَّ عليَّ ليعرف ما اخفيه ، فقلت له : إذا اخبرتني عمن نقل اليك هذه العبارات قلت الحقيقة . فقال لي بعد تردد قليل : ان عبدالقادر افندي الكيخيا جاء إليَّ من الاجتماع ، واخبرني بما دار فيه . فجمدت في مكاني ، وكذبت ما قيل . ثم خرجتُ من عنده ، وتوجهتُ إلى شاكر بك ، وقصصت عليه الأمر . فقال والله ما دامت هذه اخلاق ابناء بلادنا ، فاننا لا نستطيع ان نستقلَّ ابداً ، وقد تحكمنا دولة اصغر من الدولة الفرنسية . ولذلك أرى انك لا تستطيع السفر الى عنتاب ، والفرنسيون هناك ، لأنهم سيعلمون بسفرك ، وسيلقون القبض عليك ، وسيحكمونك بالاعدام .

فأجبته: لا تتوهم كثيراً، فالفرنسيون لا يستطيعون ان يطلعوا على هذا الأمر، لأن خالي وحده هو الذي اطلع عليه، وهو كما تعلم لا يبوح به. فقال: ولكنني اخاف ان يقوم سواه، ويخبر الفرنسيين بأمرنا. فأجبته مهما يكن من أمر، فقد عزمتُ على السفر بعد غد.

وجدتُ سيارةً ذاهبة الى عنتاب، فتوجهتُ اليهـا، فوصلت قبيل الغروب، وكان في مدخل البلد مقهى صغير، لمحتُ من جملة الموجودين فيه «يانيه لي» اسعد يوزباشي. و «يانيه لي» نسبة الى موطنه مدينة «يانيه»، وكنت اعرفهُ معرفةً تامة، وكان الى جانبه البكباشي عثمان بك، الذي بقيَ في حلب سنين طويلة، وكان يعرف اهلها حقَّ المعرفة.

وأوصلتني السيارة الى الفندق. وبعد ان اصلحتُ من شأني، سرتُ الى المقهى المذكور. فنهض اسعد بك مرحباً بي، واراد ان يقدمني الى رفيقه عثمان بك فقال له هذا: انني اعرفه واعرف اهله وذويه، فضحكنا وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث. ثم سألني اسعد بك عن سبب قدومي، فأخبرته انني جئت الى عنتاب بقصد النزهة والاستجمام.

ولما غربت الشمس، وبدأ الليل يلقي سدوله قال اسعد: اننا سنسهر الليلة في احد الملاهي، فتعالَ واقضِ السهرة معنـا. فشكرت له دعوته، وذهبنا الى مكانٍ جميل، رأيتُ فيه بعض اعيان عنتاب، واولاد صاحب الدعوة. وقد فهمتُ بعدئذٍ، انهم يعملون مع القوة الوطنية.

وعندما انتهت سهرتنا، سار معي الى الفندق اسعد وعثمان، وألحا عليَّ ان اخبرهما عن سبب قدومي.

وكنتُ محتاجاً الى دليل يرشدني الى المكان الذي استطيع ان اقابل فيه مصطفى كمال باشا. وكنت اعرف أسعد معرفةً قوية، لأننا كنا نعمل معاً في القسم الفدائي من جمعية الاتحاد والترقي، كما كنتُ أعرف اخلاق عثمان ومبادئه الوطنية، ذلك انني قبل اعلان الحربة، اتيتُ الى حلب في سنة ١٣٢٣ الموافقة لسنة ١٩٠٧ منتدباً من المركز العام للاتحاد

والترقي، لاجراء التشكيلات في الشهباء، وكان عثمان هو الشخص الثاني، الذي حلفته اليمين وسجلته في الجمعية. ولكنّ شيئاً واحداً اشكل عليّ، وهو ان اسعد كان يومئذٍ قائد درك عنتاب.

وكان الفرنسيون مسيطرين اذ ذاك، وكانوا على وشك الخروج من المدينة. على انني توكلتُ على الله، ودفعت ما استولى عليّ من الوسواس، وأفهمتهما انني اودّ مقابلة مصطفى كمال باشا. فقالا لي: ليس هذا بالامر السهل. فقلت لهما: مهما كان الامر صعباً، فانني سأقابله، ولو اضطررتُ الى ان اطوف الاناضول كلها. فقالا: وفقك الله. ثم نهضا يريدان الخروج. ولما وصلنا الى الباب، طلب اليّ اسعد ان اوافيه في صباح اليوم التالي الى السراي وقال: «ويخلق الله ما لا تعلمون» فقلت له: لو كان هناك من يقول للباشا، ان «جميل» يريد مقابلتك، لطلبني حالاً لان بيننا مودة وولاء.

وفي صباح اليوم التالي، قصدت دار الحكومة، فوجدتُ اسعد بك منهمكاً في عمله الرسمي، فنهض واستقبلني اجملَ استقبال، واحسن ضيافتي، وراح ينجز عمله.

ولما طال بي الامر، وقفتُ وقلتُ له: يظهر ان اشغالك كثيرة، واحبّ ان اذهب، فأين استطيع ان اراك لآخذ الجواب؟ فوضع اصبعه على فمه، كأنه يريد ان يفهمني، ان هذا المكان لا يصلح للكلام بمثل هذا الموضوع. ثم طلب اليّ ان انتظره قليلاً لنخرج معاً.

ولما انتهى، سار وسرت معه، فدخل غرفة المحافظ، فقدمني اليه قائلاً: انه حلبي ورفيقي في الجيش، جاء الى بلادنا متنزهاً. ثم التفت اليّ وقال: هذا محافظنا جلال قدري بك. ثم تحدثنا عن اشغال حكومية.

وأخيراً غادرنا غرفة المحافظ، وسرنا الى ظاهر البلد، ودخلنا مكاناً خرباً، فوقف وقال لي: اعذرني يا جميل، لانني اريد ان اعصب عينيك بهذا الرباط. فقلت له: افعل ما تشاء. ولفّ على عيني رباطاً. ثم سرنا نحو

عشر دقائق ، فطلب الي ان ارفع الرباط ، ففعلت ووجدت نفسي في غرفة ، فيها ستة رجال نهضوا من مقاعدهم وسلموا علي . فقدمني اليهم وقال : هؤلاء الاخوان يؤلفون الهيئة القومية في عنتاب . وكان بينهم عثمان بك . ثم سألوني عن سبب مقابلتي للباشا ، فقلت لهم : وهل من الضروري ان اطلعكم على ذلك ؟ قالوا : نعم لكي نكون على بيّنة من الامر ، ولنستطيع ان نأخذ لك موعداً تقابله فيه . فظننت ان الباشا في عنتاب ، ثم ما لبث ان ساء ظني حين قال عثمان : ان ذهابك الى الباشا صعب ، والطرق غير مأمونة وقد لا نتمكن من حراستك . على اننا سنبذل جهدنا عسى ان تتيسر لك المقابلة .

ولم أرَ بدّاً من اطلاعهم على مهمتي . وهنا خلعت قميصي الفرنجي ، وكانت الطلبات مكتوبة فيه . وقرأتها جملةً جملة ، فاستنسخوها كلها ، وقالوا اذهب مع اخوانك ، ونحن نخبرك بالامر ، فخرجتُ مع اسعد وعثمان . وتقدم اسعد ليربط عينيّ مرةً اخرى ، فقال له عثمان بك : يظهر انك لا تعرف جميل معرفة تامة ، فضحكنا وسرنا الى البلد ، وعدت بمفردي الى الفندق طلباً للراحة .

وبينما كنت نائماً ، شعرت بأسعد يهزني ويقول : انهض فالساعة قد بلغت الخامسة . فنهضت وذهبنا الى القهوة ، وجلسنا مع عثمان بك ، ومع بعض ضباط كانوا بصحبته . ودار بيننا الحديث عن الانقلاب العثماني . وبدأ عثمان بك يروي للضباط ، كيف اتيت من سالونيك الى حلب مندوباً عن جمعية الاتحاد والترقي ، وكيف عملت بسرعة وكتمان عظيمين . ثم اخبرهم كيف اراد الكومندان باكير ، ان يقبض عليّ ، وكيف ذهب اسماعيل بك اليه ورشاه بمائتي ليرة ذهباً . وكيف جاءتني برقية من المركز العام للجمعية لاعلان الحرية ، وكيف ذهبتُ والقيت القبض على باكير باشا ، قاتل مدحت باشا الشهير ، واستعدت منه المائتي ليرة مضاعفة .

وبعد بضع ساعات ، ذهبنا الى مكان آخر ، ورحنا نأكل ونشرب الى منتصف الليل ، وعندئذٍ جاء شخص وكلم اسماعيل بك على انفراد وذهب. وعلى الأثر نهض عثمان بك وقال لي ولا سعد بك : تفضلا لننصرف .

ولما وصلنا الى الشارع قال لي : ارسل الباشا في طلبك . فظننت ان الباشا في عنتاب ، ولكن ما لبثنا ان وصلنا الى مكان عرفت انه دائرة البرق ، ففهمت ان المقابلة ستكون تلغرافياً . فجلسنا عند موظف البرق . وراح اسعد يحرس الباب الخارجي ، وعثمان بك يحرس الباب الداخلي . وشرع الموظف يضرب على آلة البرق فقال لي : الباشا يرحب بك ويقول إن ما بينته للهيئة قد اطلع عليه ، فاذا كان عندك شيء آخر فتفضل ببيانه . فقلت له : لا اطلب سوى ان يطيل الله عمره ، وان يوفقه . فأجابني سأرسل لكم « الشيفرة » للمخابرة ، وخمسة فرسان مسلحين ليؤمنوا المراسلة بسرعة. اما انتَ فارجع الى بلدك بدون ابطاء والله الموفّق .

وفي اليوم الثاني ، فُتِح باب غرفتي في الفندق ، ودخل منه اسعد بك وقد وضع يده في جيبه . وكانت عيناه بلون الجمر ، فعلمتُ ان في الأمر شيئاً ، فنهضت وامسكت يديه وقلت له : مالك ؟ وما طرأ عليك ؟ فقال : هل انت جاسوس فرنسي جئتنا لتضعنا في مأزق حرج ؟ فقلت خسئتَ . ان من قال لك ذلك نذل شرير . فقال : أأنتَ صادق في ما تقوله ، فأجبته لقد رافقتني في احلك الاوقات ، يوم كنا نكافح في سبيل الحرية والاستقلال كفاحَ المستميت ، ومع ذلك فقد حافظتُ على الكتمان . فقال تعالَ معي لنحلَّ هــــذا اللغز ، فخرجنا الى بيته ، فرأيت الاشخاص الذين قابلتهم في المرة الاولى ، أي الهيئة القومية ، ومعهم شخص آخر لم أره من قبل ، فوجدتُ الجميع جامدين مدهوشين ، لأنهم كانوا يظنون ان اسعد سيقضي عليَّ ، لا ان يأتي بي اليهم . وتكلم احدهم قائلاً : ما هذا يا اسعد ؟ فقال ليس الأمر على ما ظننتم ، فان جميل لا يمكن في حال من الأحوال ان يكون جاسوساً .

فقال ذلك الشخص ، وهو يومىء الى الشخص الجديد : أتعرف هذا الرجل ؟ قلتُ لا . قال : انه جاءنا من حلب منذ ثلاث ساعات . فقلت : ومن ارسله ؟ فقال : اتعرف الحاج فاتح افندي المرعشي ؟ قلتُ : نعم ، حق المعرفة ، قال : انه ارسله ليخابر مصطفى كمال باشا ، واسمه جعفر بك . فقلت : لا شك ان الحاج فاتح قد اضاع عقله . ثم التفتُ الى جعفر بك وقلت له : بأي تاريخ ارسلك الحاج فاتح لاداء هذه المهمة ؟ قال : قبل خمسة عشر يوماً ، قلتُ : لماذا بقيتَ حتى الآن ؟ قال كلما اردت مغادرةَ القرية كنتُ اعلم ان الباشا لم يأتِ الى عنتاب . عندئذٍ فهمتُ ان الحاج فاتح قام بهذا الامر قبل اجتماعنا .

ولما اطلع الحاضرون على هذه الحقيقة اخذتهم الدهشة ، والتفتَ اليَّ المحدث الاول وقال : ريثما نستوضح الامر من الحاج فاتح ، نرجو ان تبقى ضيفاً عندنا . فقلت : استطيع ان ابقى هنا ثلاثة ايام ، لان السيارة ستأتي في ذلك الحين ، فالمرجو ان تسرعوا بالاستعلام ، لانني مرغم على العودة كما امرني الباشا .

ولم يطل الامر ، حتى جاء الجواب ، وحتى ادرك اولئك الرجال ، أنني صادق في ما قلتُ ، فوبخت الهيئة صادق بك وقالت له : وماذا كنا نصنع وتصنع لو قضي الامر ، وفقدنا شاباً من خيرة شبابنا الاحرار .

وفي اليوم الثاني ، ودعتهم وعدتُ الى حلب ، وقصصت على اخواني ما تمَّ بين مصطفى كمال باشا وبيني . ثم اخذنا نترقّب وصول « الشيفرة » والاشخاص الذين قال انهم سيأتون الى حلب للقيام بالمخابرات اللازمة .

ولما كان الحاج فاتح المرعشي عضواً في المجلس التمثيلي ، فقد أراد ان يجسَّ نبضَ الحكومة بشأن هذه الفكرة ، ويأتينا بالجواب لنعمل ما ينبغي عمله .

ومرَّ على ذلك شهر ، جاءنا بعده شاكر بك وقال لنا : إن الاشخاص الذين كنا نترقّبُ وصولهم قد قدموا الى حلب ، ونزلوا في

خان « الكلازه » . اما « الشيفرة » فقد ارسلت مع صادق بك الى الحاج فاتح . وعندما يصل الى حلب ، سنسأله عنها ونبدأ بالعمل .

وبعد مدة غير قليلة ، جاءني شاكر بك قائلاً لي : إنَّ الحاج فاتح قابل الملك فيصل واتفق معه ، على ان يُرسَل الى الحدود رجل يتفق مع مصطفى كمال باشا على القيام بالعمل المسلح ضد الفرنسيين ، وان « الشيفرة » التي تلقاها من الباشا ، قد اعطاها للملك فيصل .

هنالك قلت لشاكر بك : ان العمل على هذه الصورة ، لا يتم مع هؤلاء الناس ، الذين لا رابطة ، لهم . وبما ان الانكليز هم كل شيء في هذه الدولة ، فلا شكَّ انهم سيلعبون دورهم ، دون ان يتركوا مجالاً لتنفيذ اتفاقنا مع الباشا على محاربة الفرنسيين ، وبذلك يتمكن مصطفى كمال من محاربة اليونان ، الذين ارسلوا للاناضول على حساب الانكليز ، فاراد شاكر بك ان يعلل الامر فقلت له : سترى صحة ما اقول ، ثم ذهبتُ الى قريتي القريبة من حدود كلس ، للابتداء بالحصاد .

وبينما كنتُ هناك ، دخل عليَّ ناظر اعمالي في القرية وقال لي : رأينا عشرةَ فرسان مسلحين على طريق « كفر نابه - تل رفعت » وهم متوجهون نحونا ، فنهضت الى المنظار ، فرأيتهم مرتدين لباس الجنود المليس الاتراك ، وامامهم فارس على جواد ابيض ، علمت انه قائدهم . على انني لم اعرف سبب مجيئهم الى قريتنا .

وفي ذلك الوقت ، أتاني احد فلاحي قرية دير الجمال وقال : ان ناظر الحربية السورية يوسف بك العظمة عندنا ، ولما علم انك في قريتك ، احبَّ ان يقابلك ، فهل تتفضل بالذهاب اليه ؟ فقلت له نعم ، ودخلت لأرتدي ثيابي بعد ان امرت باعداد فرسي .

وفي هذه الاثناء ، وصل الفرسان الذين رأيتهم قبل قليل ودخلوا الجفتلك . وفي الحال ، عرفتُ قائدهم لانه كان رفيقاً لي في الجيش بسالونيك ،

واسمه (كلج علي) فرحبت بهم، فقال لي علي باشا: نحن ذاهبون الى قرية دير الجمال، لمقابلة يوسف العظمة، فاخبرتهم انه قبل وصولهم ببضع دقائق جاءني رسوله يطلب اليَّ ان اقابله. ثم اخبرته ان بين يوسف العظمة وبيني صداقة تعود الى ايام الدراسة. وبعد ان شربنا القهوة، قصدنا قريةَ دير الجمال. وفي الطريق حدثتُ علي باشا عما جرى بين مصطفى كمال باشا وبيني، فقال انه يعرف هذه المقابلة فقلت له: لا أظن انكم لم تتوصلوا الى اية نتيجة خشية ان يعلم فيصل الانكليز بالامر، لانني اعرف انه لا يستطيع ان يقوم بعمل الا اذا استأذنهم بذلك. ومن مصلحة الانكليز، ان لا يتم هذا الاتفاق لأنهم يريدون ان تبقوا منشغلين مع الفرنسيين، ليصطادوا عصفورين بحجر واحد. فقال: قد يكون ذلك، ولكن على المرء ان يسعى.

ووصلنا الى دير الجمال، فاستقبلنا يوسف بك وقبّلنا. ولما دخلنا الغرفة قال لي: من اين عرفت بمجيء علي باشا؟ فاخبرته بحقيقة الامر، وبأن بيني وبينه صداقة قديمة.

ثم طلب يوسف العظمة من المختار، ان يهيء غرفةً منعزلة. ولما تمَّ ذلك، سار هو وكلج علي اليها، فبقيا فيها نحو ساعة، عادا بعدها الينا، فنظرت الى وجهيهما، فرأيت امارات التفاهم بادية عليهما.

ولما عدنا، التفت إليَّ علي باشا وقال: أعرفت على اي شيء اتفقنا مع يوسف بك؟ قلت لقد رأيت في وجهيكما علائم التفاهم، قال: انَّ الامر كذلك.

وكنا قد وصلنا الى قريتنا، فأردت ان أبقي علي باشا عندي، فأكد لي أنه لا يستطيع ذلك، لأن مصطفى كمال باشا في انتظاره.

وبعد أربعة أيام، تلقيتُ من رشيد الحاج ابراهيم برقيةً مفادها ان أخي ينتظرني. فعدت الى حلب، ومنها توجهتُ الى دمشق، حيث

سعيتُ للحصول على جواز سفر ، وقد وسطتُ في الأمر احسان بك الجابري ، وكان يومئذ رئيس أمناء الملك فيصل ، فوعدني بان يحصل لي عليه ، وبقيتُ خمسة عشر يوماً ، أترقب انجاز هذا الوعد .

واخيراً ، توجهت الى احسان بك ، لأسأله عما تم بالجواز ، فرأيته هو ومن معه ، في قلق واضطراب ، والملك فيصل يستقبل الناس ويودعهم ليستقبلَ غيرهم ، ففهمتُ أن الفرنسيين سينذرون الحكومة مطالبين باحتلال البلاد السورية .

وعندما فاتحتُ احسان بك بشأن الجواز ، اخبرني ان المعتمد البريطاني غائب في مصر ، وعند عودته سينهي لي الجواز . فخرجت من عنده . وقبل ان اصل الى الفندق مرّ بالعربة يوسف بك العظمة ، وما كاد يلمحني حتى نزل من العربة ، وصافحني واخذني معه الى مقره في الوزارة . وهناك دار بيننا الحديث عن الامور السياسية ، فكان على ثقة بأنه لا يمكّن الفرنسيين من دخول البلاد ، اذا وفى اللنبي بوعده للملك فيصل .

ثم طلب اليّ ان اقبل وظيفة لأعمل معهم ، فاعتذرت لانشغالي بشأن اخي . ثمّ سألته عن الاتفاق مع مصطفى كمال ، فقال يبدو ان اتفاقاً تمّ بين الاتراك والفرنسيين ، ولو لم يكن ذلك ، لما طلب الأتراك الينا ان نوافق على شروط معينة اذا طلبوا قبولنا بشروط مصطفى كمال الذي فرض ان يتولى قيادة الطرفين ، وقد رفضنا نحن ذلك ، خوفاً من المستقبل فقلت : بل لخوفكم من الانكليز الذين لايرضون بهذا الاتفاق .

بقي الانذار مكتوماً مدة اسبوع ، وكانت المخابرات متبادلة بين الملك فيصل وبين الانكليز ، وقبل توجيه ذلك الانذار ، علمت الدولة البريطانية به ، وطار المعتمد البريطاني الى مصر ، ليفاوض الجنرال اللنبي بهذا الأمر .

على انه بعد اسبوع ، شاع نبأ الانذار بين الناس ، فكان من الطبيعي ان يحدث ضجةً عظيمة . فكان هناك من يقول بالمقاومة ، وهم قسم من

المعتمدين على وعود البريطانيين ، واصحاب الحمية الوطنية الصحيحة .

وقسم آخر يقول بقبول الامر الواقع ، وهم اناس مأجورون ومدفوعون من الفرنسيين . ولولا بعض الاسباب القاهرة ، لذكرت أسماء اولئك المأجورين والمندفعين ، وأكثرهم نواب كانوا داخل المجلس النيابي يصيحون بملء أصواتهم قائلين : اننا سنحارب ولن نرضى بالتسليم .

اما الشيخ كامل القصاب وأعوانه ، فانهم حين علموا بأن الملك فيصل أمر بتسريح الجيش ، هجموا على القصر ، فخاف الملك فيصل على نفسه ، وأمر الهجانة بالمحافظة عليه .

وأخيراً وصل المعتمد البريطاني ، وتوجه الى القصر وقال للملك فيصل : ان الجنرال اللنبي يرى أن الحالة الدولية لا تمكن الحكومة البريطانية من مساعدتكم ، فالأوفق أن تقبلوا بالأمر الواقع .

واذا شئنا أن نبحث في الدافع الى هذا الجواب ، مع ان الحكومة البريطانية هي التي كانت تؤيد وتشجع السوريين على مقاومة الفرنسيين ومنعهم من دخول البلاد ، نرى أن السبب في ذلك اتفاق عقد بين الفرنسيين وبين الانكليز في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩ وهذا الاتفاق يوجب على الفرنسيين ، أن يتخلوا عن الموصل وعن شرقي الاردن للانكليز ، على أن يكفّ الانكليز عن تحريض السوريين ضد الفرنسيين .

واني أؤيد الملك فيصل ، بقبوله الانذار ، وبعقد اتفاق مع الفرنسيين ، لعدم استطاعة جيشه التغلب على الفرنسيين ومنعهم من دخول البلاد .

ولو كنا على اتفاق مع الأتراك ، لتغيّر الامر ، ولكان من الممكن أن ننتصر ، ولكنّ الانكليز اذ تخلوا عنا ، وتسلم الفرنسيون من الأتراك هذه البلاد ، فلم يبقَ لنا إذاً ، سوى الاتفاق مع الفرنسيين ، كيلا يقولوا يوماً ، إننا دخلنا البلاد فاتحين محاربين .

وكانت دمشق في غليان كأنها على نار ملتهبة ، وكان الناس يهجمون على القصر الملكي من كل صوب وناحية ، فاضطرَّ الملك فيصل أمام ضغط الشعب الى أن يرفض الانذار ، وأن يستعد للحرب . وقد رأيتُ بأم عيني ألوفاً من المتطوعين يتهافتون على ميدان القتال . وكانت تنقل لهم المؤونة والذخيرة على قطار محدودة ، لاتكفي الا لرهط صغير من الجيش .

وكان بعض المخلصين لوطنهم ، والذين يغارون عليه ، يرون ذلك ، والدموع تترقرق من عيونهم ، لأنهم كانوا يقدرون عاقبةَ هذا العمل الجنوني ، ولكن :

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ولكن لا حياةَ لمن تنادي

أما الذين جنوا الربحَ من ذلك العمل ، فانهم يدعون اليوم الزعامة والوطنية والاخلاص .

وبدأت الطلقات تدوّي على الحدود ، وسرت إشاعات تقول : إنَّ الجيشَ العربي الباسل ، قد أسر فرقة من الفرنسيين ، ودمر مدافعها الرشاشة ، وعندئذ فكرتُ في أمري ، فعزمت على انْ أركب القطار بلا جواز ، واذهب على بركات الله ، واذا اعترضني أحد ، فسأقول له إنني لاجىء .

وفي الساعة السادسة صباحاً ، ركبت القطار ، فرأيت في العربة التي ركبتها ، عارف العارف . وكان نائباً عن القدس وصاحب ثورة القدس الشهيرة ، وكان محكوماً عليه بالاعدام ، فقلت له : ما هذا يا عارف بك ، أفلستَ محكوماً ؟ فقال : ما العمل ؟ . اذا دخل الفرنسيون الشام غداً ، فلا ريب أنهم سيقبضون عليَّ ويسلموني للانكليز . فقلت له توكل على الله .

وعند وصول القطار الى سمخ ، بدأت التحريات . فقلتُ لعارف بك : ما العمل ؟ فقال وقد علا وجهه الاصفرار : الله يسلم . وفي هذه الأثناء أطلَّ رجل أمريكي من احدى نوافذ القطار ، ورأى عارفاً . فقام هذا اليه وأمسكه من يده ، وبدأا يتحادثان ، ثم تصافحا ، وراحا يضحكان ،

فاقتربتُ منها وشرعتُ أضحك معها، وأهزُّ رأسي كأنني أعرف ما يقولان، وقلتُ في نفسي: قد يظنون أننا امريكيان فلا يسألون عن جوازينا، وهكذا كان الأمر، ولم يسألنا أحد عن أي شيء.

وحين وصلنا الى قرب حيفا، لم أرَ لعارف بك أثراً. ودخلنا حيفا ليلاً، وذهبتُ الى الفندق، واقتربت من مديره لأسجل اسمي، فقام رجل كان جالساً الى طاولة هناك، واقترب مني وقال لي: اظنك شقيق الدكتور حسن بك. فقلت له: نعم. فقال لي: ان رشيد الحاج ابراهيم ينتظرك في بيت المفتي محمد مراد افندي، وهما يرغبان في ان تذهب اليهما. فمشيت معه، ودخلنا بيتَ المفتي، فرأيتهُ وبجانبه رشيد الحاج ابراهيم، فاستقبلاني أحسن استقبال ورحبّا بي أجملَ ترحيب. وابتدأ رشيد الحاج ابراهيم بالكلام فقال: كيف الحالة في الشام؟ فنحن نحب ان نطلعَ على الخبر اليقين، فقصصت عليهما الامر، واوضحت لهما الحقيقة، فقالا: اصحيح ان الجيشَ العربي قد استولى على مدافع فرنسية رشاشة، واسر افرادَ فرقة؟. وهل يتمكنون من رد الفرنسيين على اعقابهم؟ فأجبتها انهم لايستطيعون ذلك، وان الفرنسيين سيحتلون دمشق غداً صباحاً، فاكفهر وجهاهما، ونظر أحدُهما الى الآخر، وبعد قليل اجتمع في دار المفتي نحو اربعين شخصاً، واخذوا يسألونني عن سبب ذلك، فقلتُ ان جيشنا ضعيف، وليس لديه المعدات الكافية، كما ان وسائل النقل قليلة وضعيفة جداً.

عندئذٍ سمعتهم يقولون: كيف يبلغنا غير هذه الحقيقة؟ ولِمَ لمْ يأتِ الى الاجتماع حتى الآن؟.

وبينما هم كذلك، إذ طُرق الباب ثم فتح، ودخل منه الامير عادل ارسلان ومعه ملحق من الشام برتبة يوزباشي، فقالوا للأمير عادل: اسمع ما يقول جميل ابراهيم باشا، فأعدت عليه ما قلته لهم، فقال هذا غير ممكن، لأنني علمتُ ان الفرنسيين مندحرون، وان جيشنا قد غنم منهم كثيراً من

المدافع الرشاشة والأسرى. فأجبته لعلَّ خبرك صحيح وسكتُّ، فرأيتُ الحاضرين يتغامزون، ففهمت انني اخطأت باعطائي هذه المعلومات. ثم استأذنت بالانصراف وخرجت.

وعند الصباح رأيتُ رشيد الحاج ابراهيم، فجلست معه وسألته عن اخي الدكتور فقال: لقد راجعتُ كثيراً بشأنه، وكتبت الى مصطفى بك الخالدي نائب الاستئناف، فعلمت انه لا يستطيع ان يصنع شيئاً.

وكان اليوم يوم أحد، ولم يكن فيه قطار للقدس، وكنتُ مرغماً على البقاء الى اليوم الثاني. وبينما كنت اشرب القهوة، إذ دخل اليوزباشي الذي كان مع الأمير عادل، واقترب من السيد رشيد، وهمس في اذنه كلمات لم افهمها، فما شعرتُ إلا والسيد رشيد قد انتفض انتفاضةً قوية وقال له: من العار ان تكذبوا الى هذا الحد. اما كفى اننا اتهمنا هذا الشريف بتهم هو بريء منها. ثم اقترب مني وقال لي: ان هؤلاء الجماعة قد غرَّروا بنا، وقد اشتبهوا بأنك مع الفرنسيين انتقاماً لأخيك. ثم قال لي: إنه سيزودني بكتابين: الواحد لصديقه حسن صدقي بك الدجاني، والثاني الى مصطفى بك الخالدي، عسى ان يساعداني على انقاذ اخي.

وفي اليوم الثاني، ركبت القطار متوجهاً الى القدس، وقابلت فيها السيد حسن صدقي الدجاني، فكلم مدير السجن هاتفياً، واتفق معه على ان نقابله في صباح الغد.

وفي الموعد المحدد، توجهنا الى السجن، وقابلنا مديره الانكليزي، وطلبنا اليه ان يأذن لنا بمقابلة اخي، فأجابنـــا انه رجل شرير ارتكب جناية كبرى في الحرب، فأخبرته ان أخي لا يمكن ان يكون جانياً، لأنه مشهور بطيب أخلاقه، وعفة نفسه، واستقامة مبدئه، وانه كان مضربَ المثل في بلادنا بمحاسن سجاياه.

وبعد أخذ وردٍّ، رضيَ أن يسمح لنا بمقابلة أخي. وفي الحقيقة

فقد كان لقاؤنا مؤثراً جداً ، إذ شاهدته مكبلاً من عنقه الى قدميه ، كما شاهدت علامات التعذيب بادية عليه .

وفي اثناء هذه المقابلة ، كان حسن صدقي يقنع مدير السجن بصحة كلامي ، وبأن اخي مظلوم ، فقال سأدرس ملف اوراقه في هذا المساء ، فارجعا إليّ غداً حتى اذا تبين لي انه مظلوم ، عاملته بالرفق والحسنى .

وبالفعل ، فقد عدنا اليه في اليوم التالي ، فطلب إحضار اخي فأحضر بعد ان نزعت قيوده . فالتفت مدير السجن الينا وقال : لقد اتضح لي انه مظلوم ، وسأعامله أحسنَ معاملة .

وبقيتُ في القدس بضعة أشهر ، وانا أسعى لانقاذ أخي بدون جدوى ، واخيراً قال لي مصطفى الخالدي : لا فائدة من بقائك ، فعد الى بلدك ، لاني أخاف عليك من اليهود . غير أنّ حسن صدقي قال لي : هيّا لنقابل في الناصرة « آرازون » شقيق المرأة التي اتهم اخوك بقتلها .

وفي الحال قصدنا الناصرة ، وتوجهنا الى دار آرازون وقابلناه وطلبنا اليه ان يتوسّط لطلب العفو عن اخي ، فغضب غضباً ظاهراً وقال لنا : إنّ هذا لمنَ المستحيل .

وفي ذات يوم ، بينما كنتُ جالساً في الفندق ، تعرّفت بمظهر باشا رسلان . وكان يومئذٍ متصرّفَ السلط ، وقد جاء لمقابلة المفوض السامي ، وبعد ان حادثته ، فهمتُ منه ان الانكليز يفاوضون رؤساء العشائر ، ليتمكنوا من الاستيلاء على شرقي الاردن ، بعد ان يجعلوها إمارةً تتسلم شئونها الامير عبد الله . ثم تعرفت بقريفان باشا الدجاني ، وبعقال باشا الفائز ، وكانا يجلاّنِ أخي كثيراً ، فتوسطا معاً لدى المفوض السامي ليعفوَ عن اخي . غير انهما لم يظفرا بطائل .

ولما ضاق بنا الامر ، ولم نتمكن من الوصول الى بغيتنا المنشودة ، قال لي حسن صدقي : إنّ آرازون قدجاء الى هنا ، فقم لنقابله ، فلعله يغيّر

رأيه . فذهبنا اليه ، فاستقبلنا استقبالاً حسناً ، فحدثناه بشأن التوسط للافراج عن اخي ، فطلب ان نعطيه مبلغ خمسة آلاف ليرة ذهباً ، زاعماً ان اخاه قد مرض بسبب وفاة اخته ، وانه يريد ارساله الى انكلترا للتداوي ، فاستعظمنا المبلغ وطلبنا تخفيفه فلم يقبل .

واخيراً ، وبعد محاولات كثيرة ، اخبرته ان ليس عندي سوى ثلاثة آلاف ليرة ذهبية مودعة في البنك العثماني ، وطلبت اليه ان يقبضها ، على ان ارسل اليه الباقي من حلب ، ولكنه لم يرض . فأصر عليه حسن صدقي فقال له : (آرازون) : أقسم لي بشرفك ، بأنك ستعطل جريدتك ، وتكف عن مهاجمتنا .

فأقسم له حسن صدقي ، ووعده بما طلب ، وعندئذ سلمته تحويلاً بثلاثة آلاف ليرة ، فكتب رسالة باللغة الانكليزية ، وقال لي : أوصل هذه الرسالة الى الجنرال ديدس ، وهو يعمل على اخراج اخيك من السجن .

وفي صباح اليوم التالي ، قصدت الجنرال المذكور ، وسلمته كتاب ارازون ففتحه وقرأه ثم رفع رأسه وقال لي : ان اخاك سيغدو حراً طليقاً ، وغداً عندما يعود المندوب السامي من حيفا ، سأبلغك العفو عن اخيك .

وفي الحقيقة ، فقد صدر قرار العفو عن اخي في ثاني يوم ، فذهبنا الى السجن واخذناه منه ، واشتريت سيارة حسن صدقي بك ، وتوجهنا الى بيروت ومنها الى حلب .

وفي طريقنا بالقرب من قرية الشيخ احمد ، اعترضنا اربعة اشخاص يريدون سلبنا ، فأخبرناهم اننا لانحمل شيئاً من المال ، ولما عرفوا من نحن ، أكبوا على يد اخي ويدي يوسعونها تقبيلاً ، ويطلبون الينا ان نعفو عنهم ، ثم رافقنا اثنان منهم ، بعد ان أكدا لنا أن الطريق غير مأمون ، وكان ذلك في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ .

ثورة هنانو

في ذلك الحين ، كان ابراهيم بك هنانو قد قام بثورته على الفرنسيين ، فعلمتُ ان الاتفاق قد تم بينه وبين الاتراك على اعلان الثورة ، وان هذه الثورة يمكن الاستفادة منها ، فأخذتُ أبثُّ الدعاية لها ، واحرِّض الناس على مساعدة هنانو . ثم علمتُ ان هنانو يريد ان يدخل حلب على رأس قواته المناضلة ، بعد ان يغادر ادلب ، فرأيت ان الطريق الصالح لذلك ، هو قريتنا « كفر حلب » ، فأوعزتُ الى رجال تلك المنطقة ، ان ينضموا الى هنانو ، وان يعملوا على مساعدته . ثم طلبت الى اخي الذي كان يقوم بادارة شؤوننا بالقرية ، والى اولاد عمي المقيمين بقرية « عصعوص » ، ان يتصلوا بهنانو ، او يطلبوا منه التعليمات اللازمة بهذا الشأن .

وبعد مدة وجيزة ، غادر هنانو ادلب متوجهاً الى قريتنا « كفر حلب » التي تبعد عن الشهباء ٣٥ كيلومتراً ، فدخلها وتمركز فيها ، استعداداً لدخول حلب .

على ان خلافاً نشب بين هنانو وبين رفيقه في الجهاد نجيب عويد ، فقد رفع هنانو في معسكره العلمَ التركي والعلم العربي ، فغضب نجيب لرؤيته العلم التركي ، واراد ان يقتل هنانو ، ولكنَّ سكان القرية وعلى رأسهم اخي واولاد عمي ، اقنعوا نجيباً بالعدول عما كان ينويه ، واكدوا له ان عمل هنانو كان ضرورياً ، لأنَّ بين رجاله عدداً من الجنود والضباط الاتراك .

وما كاد الفرنسيون يعلمون بحركة هنانو ، حتى شعروا بما يهددهم من الخطر اذا دخل هنانو حلب . وعندئذ رأوا ان يعملوا على ردِّ هنانو ، وتشبثوا لذلك باعداد قوامٍ وبعض وسائلهم الخاصة ، ففاوضوا



الزعيم ابرهيم هنانو

على صهوة جواده ايام ثار على الفرنسيين

الشيخ عبدالكريم رئيس عشيرة « ابو شيخ » وكان بجوار قريتنا ، ليتعرض برجاله لقوى هنانو المرابطـة في كفر حلب ، وبذلك يشاع ان الاهالي لم رضوا عن هذه الثورة التي قامت بها عصابة من قطاع الطرق . وتعرض الشيخ عبدالكريم وافراد عشيرته لهنانو ، ومده الفرنسيون بقوة كبيرة ، فلم ير هنانو بدّاً من الانسحاب والتراجع . وهنالك بدأ عبـدالكريم وعشيرته ينهبون ويسلبون ، وبذلك قطع على هنانو طريقّ الوصول الى حلب .

ولم يكتف عبدالكريم بما لاقاه من اكرام الفرنسيين وتشجيعهم، فاستمرّ ينهب ويسلب ، حتى ضاق به الناس ذرعاً ، ورأوا ان يتخلّصوا منه ، وحرروا شكايةً عددوا فيها تعدياته ، وسموه فيها بقاطع الطريق .

مضى وقت طويل ، وهنانو يقاوم الفرنسيين ، ويتنقل من منطقة الى منطقة ، ولم يرَ الفرنسيون بدّاً للخلاص منه ، إلاّ بقطع امدادات الأتراك عنه ، فاتفقوا مع الأتراك في عام ١٩٢١ فسحب هـؤلاء القوى التركية ، وقطعـوا عن هنانو المـدد . فلم يسع هنانو الا أن يلجأ الى شرق الأردن .

وبعد مذاكرات ومفاوضات بين الانكليز والفرنسيين ، اتفق الفريقان على أن يسلم الانكليز هنانو الى الفرنسيين ، بشرط أن لا يصاب بأذى .

وبالفعل ، فانّ السلطـة البريطانية في فلسطين ، ألقت القبضّ على ابراهيم هنانو ، وسلمته الى السلطة الفرنسية .

وفي منتصف شهر آب ١٩٢١ ، جيء بهنانو الى حلب ، واودع السجن العسكري ، وكان يومئذٍ في الخان المعروف بـ « خان استانبول » .

وبعد ستة اشهر ، اي في اليوم الخامس عشر من شهر آذار عام ١٩٢٢ ، بدأ الفرنسيون بمحاكمة هنانو ، في دار الحكومة « السراي القديمة » وفي الغرفة المعدّة لمحكمة الجنايات الاهلية . وقـد تولى الدفاع عنه ببلاغة وحماسة عظيمتين ، المحامي الاستاذ فتح الله الصقال .

وكانت الجلسات صاخبة ، والدفاع عنيفاً ، وعدد الحضور كبيراً ، وكلهم من رفاق هنانو ، ورجال الوطنية ، واصحاب العقيدة العربية الراسخة .

وبعد مرافعات عديدة ، اعلنت براءته ، فعمت الأفراح مدينة حلب ، وسادها الهدوء ، ماعدا اجتماعات سرية كان يُقصد منها تهيئة الشعب للقيام بحركات داخلية .

وبقيت الحال كذلك الى سنة ١٩٢٦ .





الزعيم الخالد ابرهيم هنانو

النضال في عام ١٩٣٦

وفي تلك السنة، اعلن الفرنسيون أنهم سيجرون انتخابات محلية ليجعلوا البلاد دويلات. ولو استطاع الفرنسيون ان يفعلوا ذلك، لكانت العاقبة وخيمة على البلاد.

ولهذا عُقدت اجتماعات تهدف الى مقاومة الفرنسيين، والى منعهم من جمع مجلس يقر أعضاؤه هذه الفكرة.

وفي ذات يوم، جاءني ابراهيم بك وقال: علينا أن نبدأ بالعمل. وقد جئتُ اليك لتشتركَ معنا في تحريض الناس على مقاطعة الانتخاب، فوعدته بذلك، واتفقت معه على أن أتصل به في كل يوم، لجمع المعلومات وتنظيم الأمور.

وأعلن اجراء الانتخاب رسمياً، فرأيتُ أنَّ أهمَّ ما يجب عمله، هو تحريض طلاب المدارس على منع المنتخبين من وضع القوائم في صناديق الاقتراع، وكان من الضروري أن يكون هؤلاء الطلاب من الأحداث، لكي لا يلحقهم أذى قانوني.

وعلى الفور، أتيتُ بابن شقيقتي رشيد رستم، وكان عمره يومئذ ١٣ أو ١٤ عاماً، وبثثتُ له فكرتي، وأوعزت اليه أن يجمع طلاباً للقيام بهذا العمل، على أن يُخصص لكل صندوق طالبان حديثا السن، وأن يأتيَ بالطلاب الينا لندربهم على العمل، فكان لنا ما أردنا.

وكان هنانو وبعض الرفاق، قد أعدوا بياناً وزعوه على الشعب، طالبين مقاطعة الانتخابات وكان البيان المذكور موقعاً بامضاءات: هنانو وسعد الله الجابري والدكتور عبد الرحمن الكيالي وبامضائي وامضاءات الحاج ربيع المنقاري والحاج نجيب باقي وأحمد الرفاعي وغيرها.

وقبل ابتداء الانتخاب بثلاثة أيام ، عُقِدَ اجتماع في دار عبدالحميد الجابري ، حضره هنانو وسعدالله ، كما حضرته مع بعض الرفاق .

وبدأ الحاج ربيع بالكلام فقال لهنانو : لقد جاءني عبدالقادر ناصح الملاح ابن (مرعي باشا الملاح) حاكم حلب اذ ذاك ، وطلب اليَّ أن يوقع البيان الذي سنذيعه على الشعب ، ثم قال لي : لماذا لم تطلبوا اليَّ أن أوقع معكم البيان ؟ أوَ تحسبونَ انني لا أحب بلادي ؟ .

فالتفت سعد الله الى الحاج ربيع قائـلاً : لسنا بحاجة الى امثال كهؤلاء يضعون امضاءهم بجانب امضاءاتنا . فقلت لسعد الله : إنني أرى عكسَ ما ترى ، فان امضاء عبدالقادر الملاح ، سيحدث أحسن تأثير في قلوب الناس ، لأن والده حاكم البلد ، وسيحدوهم الى مقاطعة الانتخاب . وبعد أخذ ورد ، قررنا أن يوقع امضاءه على البيان ، فحمل المقاري البيان وذهب ثم عاد وعليه التوقيع .

وفي ذلك الاجتماع ، أخذ سعد الله يقدح بالمرشحين للنيابة ويسميهم خونة . ولكنني عارضته قائلاً : لايجوز ان تسميهم خونة ، إلا اذا رفضوا سحبَ ترشيحهم . ولن يكون لبياننا التأثير الفعّـال ، إلا اذا وقع عليه رؤساء الأحياء . والرأيُ عندي ، أن نذهب أولاً الى بيت المرشح المحامي عبدالرحمن الجوبي ، ونطلب منه سحب ترشيحه . ثم علينا أن نقصد الصيادي وغيره ، ولو بقينا نطوف الأحياء الى الصباح . ولكنَّ سعد الله قال : أنا لا أتنازل للذهاب الى بيت الجوبي وغيره من الخونة . فقلت له ليس هذا صواباً ، فمن يعمل في القضايا القومية ، عليه أن يدخل بيتَ أدنى النـاس مقاماً ، ليبث فكرته ويؤدي رسالته .

ولما طال بيننـا النقاش قال هنانو : ان جميل على حقّ ، فهيا بنا لنبدأ العمل منذ الآن . وبعد أن تناولنا طعامَ العشاء في بيت عبدالحميد أفندي الجابري ، قصدنا دارَ الأستاذ عبدالرحمن الجوبي أحد المرشحين ، فاستقبلنا أحسن استقبال . وعندما بينا له رأينا ، وما ينجم عن تقسيم البلاد

من ضرر ، أجابنا بملء الصراحة قائلاً : إني أوافق على سحب ترشيحي . وبما أنني أتقاضى من دائرة الأوقاف نحو ٣٠٠ ليرة ذهباً في كل شهر ، وأنا مفتقر لهذا المبلغ ، وعندي وسيلة أغش بها الفرنسيين ولا أدع لهم أية شبهة بي اذا سحبت ترشيحي . وذلك أن محمد شريف يرغب في ترشيح نفسه ، فما عليَّ الا أن أقول ان محمد بك اجدر مني بذلك . وهكذا ألعبُ دوري بدقة ، واحقق هذا المطلب الوطني . فاستصوبنا رأيه لعلمنا أن الفرنسيين لا يرضون بمحمد بك لسوء سمعته وخمول ذكره .

ثم ذهبنا الى الصيادي ، وطلبنا منه سحب ترشيحه ، فلم يرض فوصمناه بالخيانة وتركناه . وبقي علينا من المرشحين الاسلام غالب بك قطراغاسي وشاكر بك الشعباني ، وصبحي بك بركات .

ولما كان غالب بك رئيساً للبلدية ، فان مفاوضته بهذا الشأن مستحيلة . وأما الشعباني وبركات فاننا لا نستطيع مقابلتهما لما بينهما وبين هنانو وسعدالله من عداء سابق . ولهذا توجهنا الى الأحياء الشعبية . وكنا اينما دخلنا نلق الترحيبَ البالغ ، والحماسة العظيمة ، والتفاهم التام على مقاطعة الانتخاب . وكنا نطلب الى كلِّ ذي مقام مرموق بين الشعب ، أن يوقع امضاءه على البيان . وهكذا قمنا بهذا العمل ، على أكمل وجه ، وأتمّ قصد .

وقبل يوم الانتخاب ، اجتمعنا في دار عبدالحميد أفندي الجابري ، لنعمل على تنظيم شؤوننا يوم الانتخاب ، فقال سعد الله إنه سيكون في صباح الغد مع ابراهيم بك . واقترح ان يُقسم الاخوان اثنين اثنين يطوفان على الصناديق ، على ان يحول الجميع دون مجيء الناس الى الاشتراك في الاقتراع . غير أني لم استحسن هذا العمل ، ورأيتُ أنه سيأتي بتأثير معاكس ، فضلاً عن ان القانون يمنع التدخل في شؤون الانتخاب .

ولا شكَّ ، أنَّ الفرنسيين سيأمرون بتوقيفنا ، مما يضعف معنويات الناس ، ويحدوهم الى الاقتراع .

فاقترحت عليهم الاستعانة بالاحداث من طلاب المدارس، وتوزيعهم على صناديق الاقتراع، حتى اذا جاء من ينتخب يقولون له : انك تعمل على ضياع مستقبلنا، وتبيع البلاد للأجنبي، فيكون لذلك تأثيره البارز في النفوس، وهكذا تنتصر قضيتنا. فقال لي سعد الله : وهل من الموافق أن يشتغل طلاب المدارس بالسياسة؟ فقلت له : ان للضرورة أحكاماً، والطلاب متهيئون للعمل. ثم ناديتُ الآذنَ وأمرته أن يتوجَّهَ الى رشيد رستم، ويطلب اليه أن يأتيَ ببعض الطلاب حالاً.

وبعد وقت قصير، جاء رشيد ومعه عشرون طالباً، فسألهم هنانو عما سيفعلون في الغد، فأجابوه بما ادهشه وادهش الحاضرين.

وفي اليوم الثاني بدأ الانتخاب، واستمرَّ ثلاثة ايام، ولم يأتِ الى صناديق الاقتراع احد. فكان من الطبيعي، ان تبقى الصناديق فارغةً، وان يغتاظ الفرنسيون لذلك.

وفي مساء اليوم الثالث، علمنا ان امراً صدر بتوقيف الحاج قاسم جنيد ومنير العمادي، لأنهما كانا يتجولان في المناطق الانتخابية. فاستنتجتُ ان الفرنسيين لا بد ان يأمروا بتوقيفنا ايضاً، فقلتُ لابراهيم بك، دعنا هنا واذهب، لان وجودك معنا غير موافق الآن، لانهم اذا قبضوا عليك كان لذلك تأثير ليس في صالحنا، لان الفرنسيين يطمئنون ويعملون ما يشاءون.

فاستصوبَ رأيي وخرج، كما خرج اكثر الاخوان هاربين، ولم يبقَ غيري وغير سعد الله الجابري والحاج ربيع المنقاري. وحوالي الساعة الثامنة مساءً، دخل علينا عمر قنواتي، ومعه اربعة من رجال الشرطة وبادرنا بقوله : أنتم موقوفون.

فأجبته لقد كنا نتوقع هذه النتيجة، ولكنك تكلّم وجوهَ القوم، فعليك أن تؤدي التحية، وتكون أكثرَ تأدباً، ثم عليك أن تبلغنا ما أُمرتَ به.

قلت له ذلك، لأنه كان صديقي ورفيقي في المدرسة. وبينا نحن كذلك، اذ دخل علينا عبد الحميد الجابري. ولكي لا يُقبض عليه معنا، قلت له، إنا موقوفون وانت موقوف معنا بلا شك، فأدخل الحرم والبس ثيابك، ثم أمسكته، من يده وضغطت عليها فدخل الحرم ولم نعد نقف له على أثر.

وانتظر المفوّض اكثر من نصف ساعة، ولما لم يأتِ عبدالحميد أفندي الجابري، داخل المفوض الشك، فأمر رجاله أن يبحثوا عنه، فذهبوا ثم عادوا قائلين: انه دخل الحرم وخرج من باب خلفي الى السويقة، ومنها الى حيث لا يعلم احد. فقال لنا المفوض: تفضلوا بالمسير. فقال له سعدالله: لا أستطيع السير، فعليكم أن تحضروا لنا عربات، فأحضروها وركبناها، فسارت بنا الى النظارة في دائرة الشرطة حيث أوقفنا هناك.

ولما اقبل اليوم الثاني، ذاع الخبر، فهبّت الشهباء قاطبةً محتجة على هذا العمل المنكر، واغلقت متاجرها، وسارت فيها المظاهرات الصاخبة، وكان على رأسها الرجل الوطني الشجاع، الحاج احمد قباني شقيق عارف قباني. وفي تلك المظاهرات، لم يعبأ الشعب برجال الجيش والشرطة بل اصطدم بهم، وهاجم السراي. وكان اذ ذاك توفيق غريب مديراً للشرطة، فجاء الينا ورجا منا ان نصعد الى السطح، ونطلب من الناس ان يعملوا على الهدوء والسكينة، فرفضنا اولاً، ثم ما لبثنا ان اجبناه الى طلبه حباً بالشعب. ولكنَّ طلبَ مدير الشرطة كان مكيدةً لنا وشركاً لقتلنا، فقد حشد الرشاشات على اسوار القلعة المقابلة لدار الحكومة، لتستعمل في صدِّ من يهجمون على دار الحكومة. وهكذا نكون نحن هدفاً للرصاص اذا صعدنا الى سطح السراي.

وتقدم سعدالله ليخطب في الجماهير. وما كاد يقول: يا إخواني، حتى دوّى رصاص الرشاشات. هنالك صحتُ بملء صوتي: هذه مكيدة دُبرت لقتلنا، فهيا بنا ندخل ودخلتُ في الحال. فقال سعدالله لمدير الشرطة. هذه نذالة، ولكنَّ الله خير الحافظين. وعدنا الى محلنا في النظارة.

وفي مساء ذلك اليوم اتوا بالدكتور عبدالرحمن الكيالي والحاج احمد كرزون والحاج احمد الأسود والحاج صالح ابودان وجميل فنصة وظهير الجابري وغيرهم. وقد بلغ عدد الموقوفين يومئذ، تسعة واربعين شخصاً. ثم جاءوا بـ « بكميونات » مع قوة من الجيش. وكان المطر يهطلُ غزيراً، فركبنا تلك « الكميونات »، فسارت بنا الى الثكنة العسكرية. وكانت «الكميونات» تغوص بالأوحال وتنزلق في كثير من الأحيان. وعندما بلغنا الثكنة، صفونا اثنين اثنين، وادخلونا المهجع.

وكانت الغرفة التي ادخل اليها سعدالله ورفاقه مظلمة ينيرها سراجُ غاز يتصاعد منه الدخان. وفي اليوم الثاني، نُقل سعدالله ورفاقه الى ارواد، وبقينا نحن ثلاثة ايام نأكل من طعام الجنود. ولم يعطونا سوى غطاء واحد، لايستر غير قسمنا العلوي.

وفي اثناء ذلك، تمكن الفرنسيون من وضع الأوراق في الصناديق، واخرجوا من شاءوا من النواب. فكان من حلب صبحي بركات وشاكر الشعباني وغيرهم من الأقضية.

مرَّ عشرون يوماً على توقيفنا، ثم نقلتُ بسيارة تحت مراقبة بعض رجال الشرطة الفرنسية. ولما وصلنا الى دائرة الأمن العام، ظننتُ انهم سيطلقون سراحي، ولكنَّ السيارة توجهت بي الى محطة بغداد، وكانت ساحتها مكتظة بألوف الناس. وما ان نزلت من السيارة، حتى حيتني الجماهير، فظننتُ انهم سينقلونني الى قطار يوصلني الى احد المنافي، ولكنْ ما لبثت ان تلاشت ظنوني، عندما علمتُ انَّ المحكمة العسكرية عُقدت هناك. فصعدنا السلم، وكان بانتظاري نحو عشرين محامياً من مسلمين ومسيحيين وكلهم من كبار المحامين اقتربوا مني وطلبوا اليَّ ان اوكل اليهم مهمة الدفاع عني.

ودخلتُ قاعة المحكمة يحيط بي رجال الشرطة الفرنسية. وبعد قليل دخلت الهيئةُ الحاكمة، وأخذت مكانها في منصة القضاء وبوشر بمحاكمتي.

فنظر اليَّ رئيس المحكمة وسألني عن اسمي وعمري وعملي، ثم أخرج ورقة عرفتُ أنها البيان الذي نشرناه على الشعب وسألني قائلاً: هل وقعت هذا البيان؟ فأخذته ونظرت اليه وقلت للرئيس: نعم. وكان قسم من المكان الذي فيه توقيعي ممزقاً فقال لي، بعض المحامين: انكر توقيعك، فأجبتهم: انني لا انتصل من عمل صنعته وانا مقتنع به.

ووجّه اليَّ الرئيس اسئلة عديدة اخرى تتعلق بهذا الموضوع. وبعد ان تولّى المحامون الدفاع عني، حُكم عليّ بالسجن ستة أشهر، وبغرامة قدرها عشرون ليرة ذهبية. ثم نقلت الى السجن في الثكنة. وفي غضون هذه المدة كان الفرنسيون يبحثون عن هنانو خشية أن يقوم بثورة، وكانوا يريدون التفاهم معه.

ومضى على توقيفي وتوقيف رفاقي أربعون يوماً، ثم اخرجونا تمهيداً للتفاهم مع هنانو. وقد اوعزوا اليَّ بأن استأنف الحكم ففعلت. وبخروجي من السجن سعيت للاجتماع بهنانو، وخصصت مالاً لمن يدلني عليه فلم اظفر بطائل. واخيراً ظهر هنانو، بعد ان تم التفاهم بينه وبين الفرنسيين، وبعد ان تقرر أن يعود المسجونون والغائبون الى اماكنهم، فشعرنا بالظفر وخيّم السكون على اعمالنا، كما خيم على المجلس النيابي الذي لم يجتمع اعضاؤه. فكأنَّ الفرنسيين كانوا يريدون أن يسود الملل بين الناس، ليتمكنوا بعد ذلك من جمع مجلسهم، والحصول منه على قرار باعلان دولة حلب منفردة عن الشام، فكانوا يقصدون من ذلك ان يجمعوا حلب واسكندرون في دولة واحدة، وان يلحقوا اللاذقية بلبنان.

وتذاكرنا مع هنانو بهذا الشأن، فقررنا أن نجتمع بالنواب، وأن نعمل بشتى الوسائل، على اقناعهم بعدم التصويت حتى لو أدّى الامر الى التهديد والوعيد.

وفرض عليّ، ان اتولى اقناع نوري الاصفري احد نواب ادلب،

وسليم بك جنبرت أحد نواب حلب المسيحيين ، وغيرهما ممن أتمكن من اقناعه .

والتقيت بنوري الأصفري في (قناق) بيت القدسي . وبعد اخذ ورد ، تمكنتُ من اقناعه بعدم التصويت على ما يريده الفرنسيون ، ولم أتركه الا بعد أن أقسم لي يميناً بذلك .

أما سليم بك جنبرت ، فكنتُ اعرفه محباً للفرنسيين ، فرأيتُ أن اجابهه بالتهديد . وكان من عادته ، حين يخرج من غرفة التجارة الى بيته ، ان يسلك طريق حي القلة ، فكمنتُ له هناك . ولما اقترب مني ، اخرجتُ مسدسي وصوبتُ فوهته الى صدره وقلت له : إما أن تقسمَ بأنك تخالف الفرنسيين فيما يطلبون ، واما أن اطلق الرصاص عليك . فقال لي : تمهّل ياجميل ، واعد مسدسك الى جيبك ، فأنا لستُ خائناً لاجاريهم وأنفذ رغبتهم ، وغداً سترى ما يكون . فوثقت بكلامه ، واعتذرت اليهِ عما بدر مني ، وذهبت في سبيلي .

وقبل انعقاد المجلس بيومين ، قررت أنه اذا أقر أعضاؤه ما يريده الفرنسيون ، فعليَّ أن أهدم البناية على من فيها .

ولكن ما العمل ، وليس في مقدوري أن أقوم بذلك ، واذا دخلتُ المجلس ، فسيفتشني الفرنسيون لأنهم مشتبهون بي . وكان احد جواسيسهم محي الدين المغربي صديقاً لي ، وكنت اعطفُ عليه وأثق به ، وكان يقول لي في كثير من الأحيان : انني مستعد أن ابذل روحي في سبيلك .

ففاتحته بالأمر ، وقلت له سأعطيك قنبلة حربية ، وستكون بلا ريب داخل المجلس ، فاذا أقرّ أعضاؤه الانفصال ، أشرت اليك لتقذف القنبلة ، فقال لي لبيك .

وأعطيته القنبلة وتواريتُ عن الانظار خشية أن يبوح بالسر . على أنني تحققت صدقه . وفي يوم اجتماع المجلس ، سرتُ أنا وابن عمي شكيب

الى مكان الاجتماع ، بعد ان اطلعته على خطتنا ، وقلت له اذا اقرّ النواب الانفصال ، فما عليك الا ان تهرب معي قبل القاء القنبلة .

وكان الفرنسيون قد عمدوا الى الاحتياطات اللازمة ، وكان محي الدين المغربي موجوداً وقد اومأ إليَّ بأنه مستعد للقيام بما عهدتُ به اليه ، وانه بانتظار اشارتي .

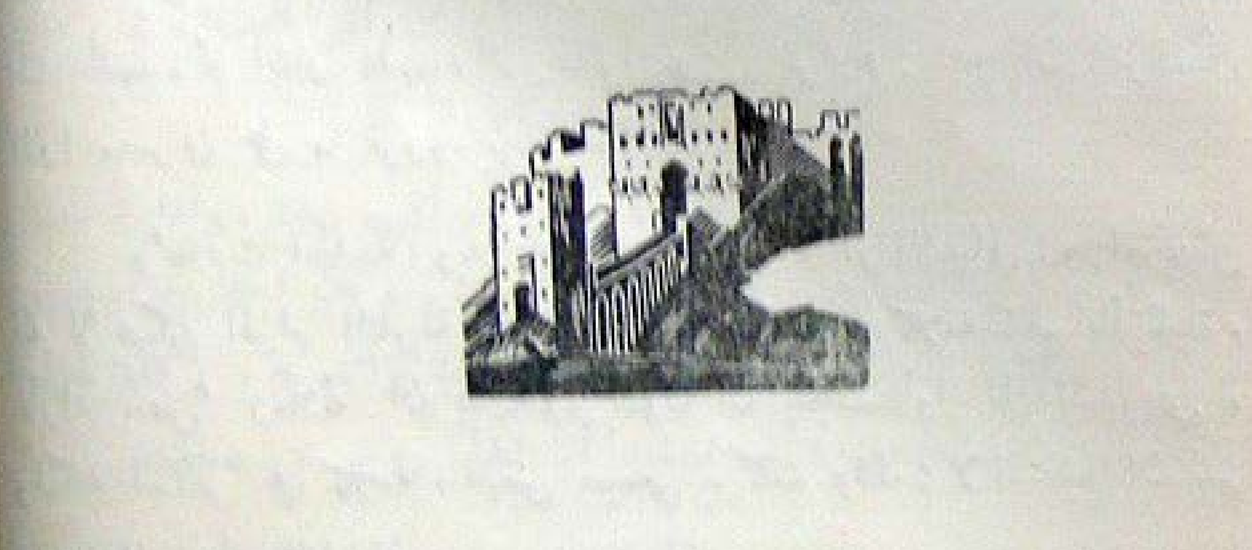
وبدأ النواب يتوافدون ، وكنت انظر من شبابيك المجلس الى النواب القادمين ، فرأيت ابراهيم بك راكباً عربته ومنزوياً في طرف الشارع ، فذهبت اليه وقلت له : ماذا تعمل هنا ؟ قال ليراني النواب ويحسبوا لوجودي ألف حساب . ولا اظنهم يجرأون بعد ذلك على اتخاذ ذلك القرار المشين . فأعلمته بما قررته ، وطلبت اليه أن يذهب ويختفي . ودخلت الى المجلس ، وكان عدد النواب قد اكتمل . وفهمت أن سليم جنبرت قد ذهب الى المندوبية قبل بدء الاجتماع ، وأفهم المندوب ان عملاً كهذا لا يجرأ نائب على ان يقره ، ثم أخبره أنه وهو صديق الفرنسيين ، لا يستطيع ان يجيبهم الى طلبهم . ثم اشار عليهم ، ان يعدلوا عن قرارهم . غير ان الفرنسيين ظلوا مصرين على ما قرروه بهذا الصدد .

وُعقدت الجلسة ، وبدأ النقاش ، فنهض شاكر الشعباني ، وراح يبيّن انه لا يمكن اقرار التفرقة بين البلاد . واستخدم في كلامه الفاظاً ثقيلة ، فأراد بعضُ زملائه ان يسكتوه بدون ان يلجأوا الى التشويش ، ولكنه استمرَّ في كلامه ، فنهض صبحي بركات وقال : لا نستطيع ان نقر ذلك بمثل هذه الطريقة .

وكان معاون المندوب حاضراً تلك الجلسة . فعندما رأى ذلك ، وشاهد الخلاف سائداً ، غادر القاعة ، ولكنَّ الشعباني ظل باقياً ، فقام غالب بك قطر أغاسي وخرج ، وتبعه بقيةُ النواب . واخيراً سُجّل الرفض ، وسلمت البلاد من التفرقة .

هنالك، ذهبتُ الى ابراهيم بك، فرأيته يتوقع انفجار القنبلة، فسألني عما كان، فأخبرته بالواقع، ففرح كثيراً، وضمني الى صدره وهنأني.

بقينا الى اول عام ١٩٢٨ في هدوء لم يتخلله سوى اجتماعات خاصة. على أننا كنا نزور الاحياء منفردين، ونتحدثُ الى زعمائها، ونقوي معنوياتهم، ولم اكن اتخلى عن زيارة الاحياء يوماً واحداً، وكثيراً ما كنتُ اعقد في دار عبده المصري، اجتماعات كان يحضرها رجال الاحياء.



انتخابات المجلس التأسيسي في عام ١٩٢٨

في عام ١٩٢٨ رأى الفرنسيون ان ينشئوا دستوراً للبلاد ، فقرروا ان يُنتخب مجلس تأسيسي ، وعينوا الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للدولة ، كما عينوا معه وزراء .

وحُدد يوم الانتخاب وبدأ الترشيح ، فرشحت نفسي ، واخذت معي عارف الجزار عن قضاء جبل سمعان ، كما رشح نفسه كل من ابراهيم هنانو وسعدالله الجابري واحمد الرفاعي والدكتور عبدالرحمن الكيالي والشيخ عبدالقادر السرميني ، واوصى المحامي لويس زيادة ، ان يؤخذ عن السريان الكاثوليك لطيف غنيمة ، وعن الارمن القديم نقولا جانجي ، واحد موظفي البنك عن الارمن الارثوذكس « هينجاق » .

واعددتُ العدة اللازمة . وكان جميع أهل القرى معنا . وقبل يوم الانتخاب جمعنا المنتخبين الثانويين في دار ثريا سياف ، واتيت بابراهيم هنانو تقوية لمعنويات المنتخبين ، فخطب ابراهيم فيهم ، وحثهم على العمل ، فكان لكلامه تأثير عظيم في نفوسهم .

وفي صباح اليوم الثاني ، ذهبنا الى مكان الاقتراع في غرفة قائم مقام القضاء عند قهوة البرتقال ، وجلسنا كما جلس المنتخبون خارجاً ، وجاء مستشار القضاء ، وكان يصافحهم ويقول لهم : « مظبوط » ؟ فيجيبونه « مظبوط » .

واراد عارف الجزار أن يحتج على ذلك فمنعته . وبدأ التصويت ، وبدأ المنتخبون يدخلون ، ورأيت ان احصي اصواتنا ، فامسكت بيدي مسبحة ، وكلما دخل منتخب وبيده ورقة يحرص على أن لا يراها احد ، اقول هذا معنا بلا ريب ، واسحب حبة من المسبحة .

وعندما كان يدخل سواه مختالاً وورقته مفتوحة ، اعرف انه ضدنا. وبقيت كذلك ، حتى عددتُ مجموع الحبات ، فكان ٥٩ حبة وهي الاكثرية المطلوبة . هنالك قذفت المسبحة ، وبقيت العب بها كما يُلعب بالكرة . وكان جميع مديري النواحي حاضرين ، ليحثوا المنتخبين على مجاراة الحكومة ، وانتخاب مرشحي الفرنسيين . ولما رأوني ألعب بمسبحتي ، أخبروا المستشار أنني عندما علمت بعدم حصولي على الاكثرية ، أصابني مسٌ من جنون ، ففرح المستشار بذلك كثيراً .

وانتهت عملية التصويت ، فطلب القائم مقام ، وكان حينئذٍ كمال عامل الجلبي ، ان نستريح قليلاً ، ليصار بعد ذلك الى فتح الصناديق ، فمانعنا وابينا إلا ان يبدأ بفرز الاصوات . فحاولوا ان يؤجلوا ذلك ، ولكننا لم نشأ ، الا ان تفرز في الحال . وكانت الاصوات تتوالى لمصلحتنا ، حتى بلغ عددها تسعين صوتاً لنا ، والباقي لمرشحي الحكومة ، عندئذٍ قال القائم مقام : لقد تعبنا ، فلنتغدَّ ثم نحرر الضبط . وكان يقصد ان يجيء المستشار ويلعب دوره ، ولكننا لم نترك الفرصةَ التي يريدها ، واجبرناه على تنظيم الضبط . وعندما علمت (من بعض) رجالنا ، ان قائمة هنانو قد لا يكتب لها النجاح طلبت منهم ، انْ يحملوا لوحات كبيرة يكتبون عليها ان جبل سمعان قد قدر الوطنيين وانتخب مرشحيهم . فأدى ذلك الى اضرام نار الحماسة في نفوس الناخبين .

وعندما نظم ضبط انتخابات جبل سمعان ووقعنا عليه ، علم المستشار بالنتيجة فأسرع الينا ، وضرب الأرض برجليه غيظاً . وكان الناسُ قد تجمهروا حولنا ، وساروا متظاهرين وهم يصيحون : أبشر ياهنانو فان مرشحيك عن جبل سمعان قد فازوا ، والفلاح كان مفتوح العين ، فعليكم يا أبناء حلب ان تستيقظوا وان تنتخبوا الوطنيين . ودبت الحمية في صدور الناس ، وراحوا يلقون بأوراقهم ، وعليها اسم هنانو واسماء رفقائه .

ولم يعرف هنانو سبب هذا التغيير الفجائي ، فخرج من غرفة الاقتراع

وسأل منير العمادي: كيف اقبل الناس علينا، بعد ان كانوا معرضين عنا؟ فقال له: اسأل جميل. وكنا نحن على الطريق. وعندما وصلنا الى دار البلدية، كان الصياح يشقّ عنان السماء، فدنا منير العمادي مني وقال: اجب هنانو. فدخلت دار البلدية، وقصصتُ عليه ماحدث، فقبلني لشدة فرحه، وراح يترقب النتيجة.

وفي مساء ذلك اليوم، فُتحت الصناديق، وفرزت الأصوات، فتبين ان ابراهيم وسعدالله قد ربحا ونالا اكثرية الأصوات. اما باقي القائمة، فلم تحرز الأكثرية النسبية، وبقيت «للبالوتاج». ورأيت لطيف غنيمة تترقرق الدموع في عينيه، فقلت له: مالك؟ فقال لي: امامنا البالوتاج، وسيعمل الفرنسيون على عدم نجاحي. وعندئذٍ اقترب ابراهيم بك وسألني: ما الخبر؟ فأخبرته بما قاله لطيف.

فقال له ابراهيم بك: اطمئن، فانني لن ادع مجالاً لسقوط احد من القائمة.

وبعد ثلاثة ايام اجري البالوتاج. وكان من الطبيعي ان يلتفّ الناس حول ابراهيم هنانو، بعد فوزه في الانتخاب، فراحوا يصوّتون لرفاقه. وكنا نطوف على الأحياء، ونحثّ اهلها على وجوب التصويت. وهكذا نجح جميع رفاقنا في حلب وجبل سمعان واصبحوا نواباً.

ولم تمضِ اربعة او خمسة ايام، حتى جاء الشيخ تاج الدين الى حلب، ليبثّ دعايته، ويجمع حوله نواب الأقضية، لأنه كان قد فاز بالنيابة عن دمشق.

وفي اليوم الثاني، دعاني لمقابلته مع عارف الجزار. ولما ذهبنا اليه قال لنا: بما أن المجلس التأسيسي يعمل على وضع الدستور، فانه سيسعى ليجعل المجلس التأسيسي مجلس نواب.

فقلت له : ان الأمة قد انتخبتنا لنضع دستورا . وبعد ان تقوم بهذه المهمة ، علينا ان نرجع الى الأمة التي يحق لها وحدها ان تقول كلمتها بشأننا . فان شاءت رشحنا انفسنا للنيابة بعد ان ننال ثقة الأمة . وكل ما ننشده هو ان ننال ثقة الشعب لا المناصب . فلما سمع هذا الجواب، سكتَ ولم ينبس بكلمة . ثم ذهبت الى هنانو وأخبرته بما كان ، فضحك وقال : ان جوابك مفحم .





المجلس التأسيسي عام ١٩٢٨

ويبدو في الصف الاول من الشمال الزعيم ابرهيم هنانو وهاشم بك الاتاسي ومجحم بن مهيد

اجتماع المجلس التأسيسي

اعلن يوم اجتماع المجلس. فذهبنا الى دمشق، وكان مجموع النواب ٧٢ نائباً منهم ١٤ نائباً وطنياً، وهم اقلية لا يتمكنون من تحقيق اهدافهم. اما النواب الباقون، فكانوا صنيعة الفرنسيين. فكان علينا ان نسعى لجلبهم الينا، فبذلنا في سبيل ذلك كثيراً من الجهد، وقررنا قبل كل شيء، ان نحتفظ برئاسة المجلس، وان نتولى مكتبه. ولكن كيف العمل ونحن اقلية؟.

على اننا لم نقنط ولم نيأس، وشرعنا نعقد الاجتماع تلو الاجتماع. وقبل ذلك، نشأ خلاف بيني وبين سعدالله حول رئاسة المجلس. فقد كان يرغب سعدالله، في ان يكون هاشم بك الأتاسي رئيساً للمجلس، في حين كنتُ انا ونواب حلب ونواب اقضيتها، نصرّ على ان يكون ابراهيم بك هنانو رئيساً للمجلس.

بيد ان ابراهيم بك دعانا اليه وقال لنا: لا يصحّ ان نختلف ايها الأخوان على امرٍ تافه. والرأي عندي، ان نساير سعدالله. وسيكون بعد ذلك لكلّ حادثٍ حديث. غير اننا بقينا مصرّين على نظريتنا. فقال لي هنانو: سيكون لاصراركم نتيجة سيئة سيستفيد منها الفرنسيون. وقد فاوضني هؤلاء بالأمر فوافقتهم، حتى اذا انهينا عملنا، كنتُ رئيساً للجمهورية. فوعدتُ هنانو بأن اكفّ عن عنادي. ثم ذهبتُ الى اخواني وحملتهم على الموافقة. وعند المساء اجتمعنا في دار فخري بك البارودي، مع رهط من النواب. اما النواب المنحازون الى الفرنسيين وعددهم ٢٥ نائباً، فقد تغيّبوا عن الاجتماع، وكان بينهم فوزي البكري ومحمود نديم الجركس وكور رشيد وامثالهم.

وقد تكلم في ذلك الاجتماع فوزي الغزي وسعدالله الجابري وابرهيم هنانو . وكان الكلام يدور حول الرئاسة والمكتب ، فاقترحتُ ان يكون هاشم بك الأتاسي رئيساً للمجلس ، فوافق الجميع على ذلك .

وقال سعدالله : بقيَ علينا تسمية نائبي الرئيس الأول والثاني . فاقترحتُ ان يكون فتح الله أسيون ، فسكت الجميع ، وفي طليعتهم هاشم الأتاسي وفوزي الغزي وسعدالله الجابري . وخشية ان تحدث بلبلة ما ، وافقوا عليه وعلى أحمد بك الرفاعي . فنظمنا بذلك ضبطاً وقعه الحاضرون وهم أكثرية المجلس .

وقد فعلنا ذلك ، خوفاً من ان يغير بعض النواب رأيهم فيما بعد .

وفي اليوم الثاني ، دعاني ابراهيم هنانو لمقابلته . فتوجهت اليه ، وكان نازلاً في فندق « فيكتوريا » ، فرأيتُ عنده هاشم بك وفوزي الغزي فقال لي : إن الفرنسيين قد أعدّوا قائمتهم ، على ان يكون الشيخ عبد القادر الخطيب رئيساً للمجلس ، وقد دعا هؤلاء النواب الى مأدبة عشاء هنا . فقلت لهنانو ورفيقيه : أتوافقون على ان احول دون هذه الدعوة ؟ فقالوا : طبعاً انا نوافق . فقلتُ لفوزي الغزي : لا ريبَ ان في احيائكم شباباً يستفادُ منهم ، قال : نعم . فقلت له : أحضر لي واحداً وسنرى بعدئذ ما ينبغي عمله . وبعد قليل ، جاءني عبدالكريم العائدي وشفيق سليمان وخالد جلق وغيرهم ، فقلت لهم : اجمعوا لي عشرة شباب مسلحين بالعصي ، وأوقفوهم أمام فرع فندق « فيكتوريا » . أما أنا ، فسأكون عند باب الفندق ، وعندما أومىء اليكم ، هزوا العصي وسترون ما يكون .

وأزف موعد الدعوة ، فوقفت أمام باب الفندق المذكور ، وجاء صاحبُ الدعوة الشيخ عبدالقادر الخطيب ، الذي أراد الفرنسيون ترشيحه لرئاسة المجلس ، وتبعه فوزي البكري ومحمود نديم وكور رشيد . ولما كنت اعرف انه لا يؤثر فيهم شيء ، فقد رأيت ان أتركهم وشأنهم .

وبعد دقائق ، بدأ يتوافد بعضُ المدعوين من النواب ، فقلت لهم : الى أين أنتم ذاهبون ؟ فقالوا : انا مدعون الى طعام العشاء ، فقلت لهم : كلا أيها الاخوان ، هذه حيلة فانظروا هؤلاء الشباب ، انهم متحمسون ، وهم يريدون أن يقوموا بعمل عدائي . غير أنني وقفتُ هنا لاحول دون ما يمكن حدوثه ، ولأنبه القادمين الى ذلك .

وكان الشباب يهزون العصي ، فقال المدعوون : ما لنا ولهذه القضية ؟ فكنتُ آخذ من يد كل مدعو بطاقة الدعوة وأمزقها ، فيعود من حيث أتى .

ودقت الساعة العاشرة ، ولم يدخل الى الفندق ، غير النواب الثلاثة الذين ذكرتهم . وكان هنانو ينتظر النتيجة ، فذهبت اليه وقلت له : ان غرفة الطعام تغصُّ بالمدعوين ، فنهض من مكانه ونظر الى غرفة الطعام ، فلم يرَ سوى أربعة أشخاص فضحك وقال : حدثنا كيف استطعتَ ان تحول دون حضور المدعوين ، فحدثتهم بخطتي ، فكان اعجابهم عظيماً .

وفي اليوم التالي ، قصدنا المجلس ، وقدمنا ورقة الضبط الى أكبر الأعضاء سناً وقلنا له : لا حاجة لنا الى التصويت ، لأن أكثر النواب أقروا ما تعاهدوا عليه .

فكانت هذه أول خطوة موفقة توصلنا اليها ونحن ١٤ نائباً فقط .

وعقدنا نحن النواب الوطنيين اجتماعاً تداولنا فيه بشأن الطعون المقدمة بحق الشيخ تاج الدين وفوزي البكري والشيخ عبدالقادر الخطيب وسعيد الغزي من نواب دمشق ، فرأينا أن نطعن بهم ، ما عدا سعيد الغزي ، الذي اكد ابن عمه فوزي انه سيماشينا . وكان الفرنسيون يعملون على احباط مساعينا . ثم رأوا ان يجتمعوا بابراهيم بك وبهاشم بك وبسعيد الغزي وأن يقنعوهم بعدم اثارة قضية الطعون . وبعد نقاش وجدال قبل رفاقنا بذلك .

وتألفت بعدئذ لجنة لوضع صيغة دستور يضمن للبلاد سيادتها واستقلالها . وقبل عرضه على المجلس لاقراره ، بدأت المناورات بشأن رئاسة

الجمهورية التي كان يطمح اليها الشيخ تاج الدين ، يساعده على ذلك الفرنسيون. ولهذا فقد اعيدّت مضبطة قام بها صبحي بك النيال وزير العدلية يومئذ ، ساعياً لتوقيعها من النواب ليحصل على الاكثرية .

أما سعدالله الجابري ، فكان يعمل في سبيل هاشم الأتاسي وانتخابه رئيساً للجمهورية. غير أني رأيتُ ان هنانو أحقّ النواب بالرئاسة . ثم نظمتُ عريضةً وبدأت أطوف بها على النواب ، فوقعها /٥٧/ نائباً . ولكن سعدالله قال لي : ما هذا العمل ؟ . أتكون رئاسة الجمهورية بالمضابط ؟ فقلت له : نعم ، فقال : اترك المجال للشيخ تاج أو لهاشم بك ، لأن انا اجتهاداً خاصاً ، ولا نحب ان يؤثر فينا احدٌ . وحين علم هنانو بالامر قال : لا فائدة من الجدال ، لأن الفرنسيين لنا بالمرصاد ، وأكبر الظن ان الدستور لن يُقرّ .

وبالفعل ، فقد بدأ الصدام بيننا وبين الفرنسيين ، لاننا رفضنا ان نحذف من الدستور المواد الست التي هي عماد الاستقلال الحقيقي . وعقدنا اجتماعاً قررنا فيه ، ان نحمل المجلس على اقرار الدستور في جلسة واحدة .

ولما عُقدت تلك الجلسة ، طرحنا الدستور على التصويت . وحين جُمعت الأصوات وقرر الدستور ، دخل المجلس (المسيو) مونيه معاون المندوب السامي ، وصعد الى المنبر وقال :

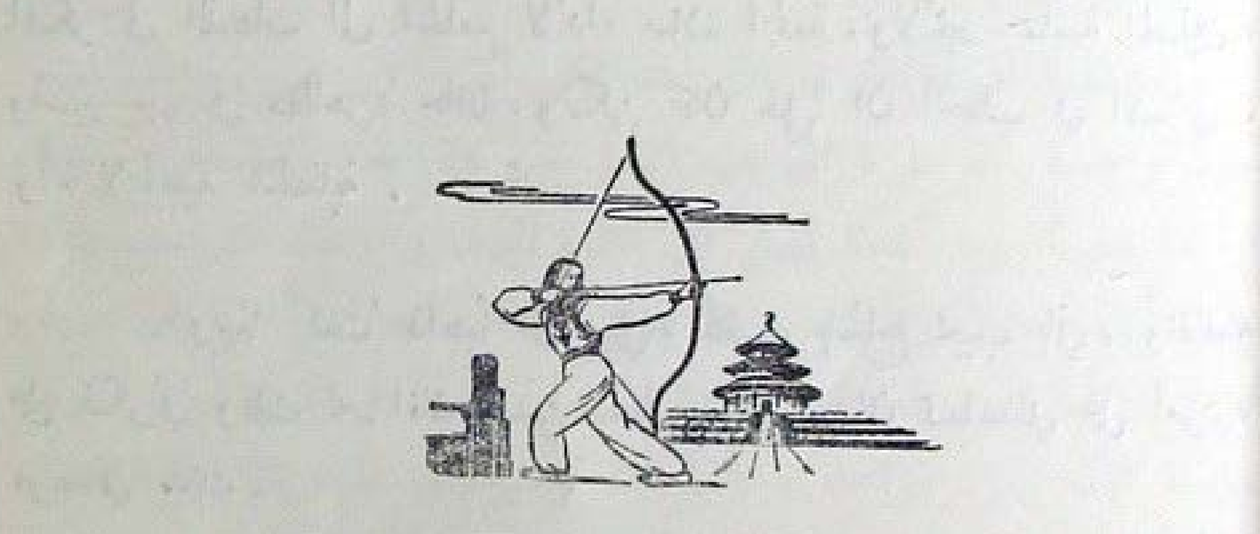
ان ما صنعناه لا يمكن ان يقروا عليه . واحتدم النقاش بينهم وبين فائز الخوري الذي أظهر من الجرأة والوطنية وحسن المنطق ، ما يثير الاعجاب . ثم رفعت الجلسة .

ولكنّ الفرنسيين مالبثوا ان عطلوا المجلس ، واحتفظوا بالدستور ، واضافوا اليه مادةً تبطل مفعول المواد الست ، ولكننا لم نقبل بذلك .

والجدير بالذكر ، أنه في أثناء المذاكرة بشأن الدستور ، قال المسيو بونسو لابراهيم بك هنانو : لا تنسَ يا ابراهيم بك ، ان الجيش الفرنسي موجود هنا . فأجابه هنانو : من المؤسف أن تهددني بوجود الجيش الفرنسي

وكم كنت احبُّ ، لو بشرتني بقرب خروجه . وكان يقصد من كلامه هذا ، ان يجيبه المفوض السامي جواباً ينطوي على نيةٍ حسنة ، وحبٌّ للتفاهم وسلامة المنطق .

ومرت الأيام تلوَ الأيام ، دون ان يحدث ما يستحق الذكر .



النضال في عام ١٩٢٩

في احد ايام ١٩٢٩ ، دخلتُ على ابراهيم بك ، وكان جالساً مع سعدالله في الشرفة المطلة على المقبرة ، فقلت لهما ممازحاً : لعلكما تناجيان الأموات ؟ . فقال سعدالله : منذ مدة طويلة والفرنسيون لم يحسبوا لأحد حساباً ، والشعب ساكن لايتحرك ، فقلت له : الشعب يحتاج الى من يثير فيه الحركة ، فهل قمنا نحن بما يوقظ الشعب ، ويدفعه الى التظاهر وازعاج الفرنسيين ؟ . فقال : بلهجة يسودها التهكم : أرنا مهارتك أيها البطل . فأجبته : حسناً سأريك مهارتي ، وسترى كيف يهبُّ الشعب للمطالبة بحقه . وكنت افكر في الذهاب الى الجامع لأداء صلاة الجمعة ، ولأثير حماسةَ المصلين ، وأسير بهم في مظاهرة حافلة ، ولكن كان عليَّ ان أخطب في الناس ، وأنا لا أجيد الخطابة .

وبينما كنتُ ذاهباً الى بيتي ، التقيت بالحاج نجيب باقي ، واطلعته على فكرتي وقلت له : انك تحسن الخطابة ، فعليك ان تساعدني على أمري ، فوعدني بذلك .

وفي مساء ذلك اليوم ، صادفت عارف هنانو ، وكان خطيباً مجيداً ، ففاتحته بتلك القضية ، وطلبت اليه ان يرافقني يوم الجمعة الى المسجد ، فوعدني بالذهاب .

وفي اليوم المذكور ، توجهتُ مع نجيب باقي وعارف هنانو الى الجامع ، وجلسنا على السدة . وبعد الصلاة قلت لهما : انهضا واخطبا في الناس . ولكنهما لم يفعلا . فنهضت عندئذٍ ، وتلوت صلاةَ الغائب على روح الملك فيصل . فوقف الامام والناس من خلفه ، وكان عددهم يزيد على ثمانمائة

شخص . وفي هذه الفترة اقنعت رفيقيَّ بوجوب الخطابة ، ولكنهما ظلا ساكتين واجمين ، فأعدتُ صلاة الغائب اربع مرات ، وأنا لم أتمكن من اقناعهما ، فقلت في نفسي ان هؤلاء الناس سيلحقون بي ، فقمت وصحت : أيها الناس اتبعوني من اجل الوطن ، هيَّا الى الأمام . وسرت في مقدمتهم ، وأنا التفتُ لأرى هل تبعني احد أم لا ؟ فرأيت نحو خمسمائة شخص قد تبعوني ، فقلت عسى ان يتبعنا اناس آخرون من الأسواق فيكثر العدد . وكنت احمس الشباب ، واحملهم على ان يهتفوا « نريد مجلساً تأسيسياً يكون دعامةً للاستقلال ، فلتسقط فرنسا ولتعشْ سوريا حرة مستقلة » .

وعندما وصلنا الى قرب بيت القدسي صاح المتظاهرون : ليسقط الخونة . وتابعنا السير ، وسمعتُ الناس يقولون : هيَّا نتبعهم ، فهذا الرجل لا يمتنع عن اسقاط كل من يخون وطنه .

وذهبنا الى « قناق » غالب بك قطر أغاسي ابن عمي ، ليزداد الناس نخوةً وحماسة . ثم سرنا الى باب النصر ، وكان عدد المتظاهرين يزداد ازدياداً عظيماً . وما كدنا نصل الى دائرة البرق والبريد ، حتى اصبح عددنا عشرة آلاف نسمة ، وهناك شعرتُ بقوة عظيمة ، فتصدَّى لنا المفوض شريف افندي الانصاري ، ومعه قوة لا يستهان بها ، فقلتُ في نفسي ، ان الفرصة مناسبة الآن لخلق حوادث ، لأننا اذا توجهنا الى المندوبية وهاجمناها ، لا يكون لعملنا نفعٌ ، فلا بدَّ انا اذاً من خلق حادثة . وكان معي ابن اختي رشيد رستم ، وابن عمي شكيب ، فقلت لهما : اطلقا الرصاص ، ففعلا ، فصاح المفوض نحن لم نأت الا للمحافظة ، فلا حاجة لاطلاق الرصاص . فكنتُ التفت الى الناس واقول لهم : لا حاجة لاطلاق الرصاص ، ولكني اوعز اليهم من طرف خفي ان يطلقوه ، فكانت الطلقات تدوّي ، والحجارة تنهال على رجال الشرطة ، حتى تحولت ساحة باب الفرج الى ميدان قتال .

وفجأةً وصلت فرقة من الفرسان السباهيين ، وراحوا يجردون سيوفهم ويضربون المتظاهرين . كما ان رجال الشرطة قابلونا بالرصاص ، فسقط

سبعة قتلى ، وعدد كبير من الجرحى . فأخذت انقل الجرحى انا وبعض الشباب الى عيادة الدكتور صبحي غازي . وبينما انا كذلك ، اذ اقترب مني طبيب الاسنان الدكتور قباقيان وقال لي : لا فائدة من وقوفك هنا ، فتوارَ عن الانظار . وكان اكثر المتظاهرين قد هربوا ، فتبعته الى بيته ، ومن هناك نزلت الى الشارع الثاني ، وركبتُ عربة وذهبت الى دار سليمان النيال.

وعند المساء ، خرجت منها الى بيت فاخر الجابري ، وكان سعدالله هناك ، ومعه بعض الاخوان ، فهنئوني بما صنعتُ . وفي اليوم الثاني اضربت الشهباء كلها ، وشُيّع القتلى في حفل شعبي عظيم ، واستمر الاضراب خمسة ايام متوالية . ثم زرنا الأحياء ، وطلبنا الى اهلها ان يعودوا الى اعمالهم ، وكانت فرصةً مناسبة للعودة الى تلك الأحياء ، ولالقاء الخطب ، واثارة الحماسة في القلوب .

وكان علينا بعد ذلك ، ان نثير موجةً من الحماسة في دمشق . وبتنا نترقب الفرصة المناسبة ، ولم يطل بنا الامر ، حتى توجهنا الى العاصمة ، وعقدنا في دار فخري بك البارودي اجتماعات ، القيت فيها الخطب الحماسية المثيرة ، فالتهبت النفوس بالحمية القومية ، وبدأ التجاوب الوطني ، واقيمت مظاهرات عديدة .

وقد رأيت ان اتوجه الى حلب ، لأخلق فيها حوادث تزعج الفرنسيين ، ولاح لي ان اهيىء لابراهيم هنانو استقبالاً شعبياً حافلاً ، ففاتحت سعدالله بالامر ، فاستصوب الرأي .

وجئت الى حلب ، واجتمعتُ برؤساء الاحياء ، وعرضت عليهم فكرتي ، فاستحسنوها كثيراً ، فهتفت الى ابراهيم بك ، وطلبت اليه الحضور الى الشهباء ، فوافق على المجيء ، وذهبنا لاستقباله في موقع (الكازخانة) .

ولما ذهبت الى مكان الاستقبال ، سمعتُ الطبل يقرع ، ورأيت أن الحاضرين لا يتجاوزون الأربعين شخصاً ، وعلى رأسهم الحاج قاسم جنيد ،

فعجبتُ لقلة المستقبلين . ولكنني ما لبثتُ ان علمت ، ان الفرنسيين قد حشدوا قواهم العسكرية ، وبثوا اعوانهم بين الناس ليهددوهم وليمنعوهم من استقبال الزعيم .

وفي الحال ، ارسلت احد الشباب بالسيارة الى المعرة ، وكان ابراهيم بك مدعواً لتناول طعام الغداء على مائدة حكمت بك الحراكي ، وقد اوعزت الى ذلك الشاب ان يقول لابراهيم بك ، أنْ لا يغادر المعرة الى حلب ، الا بعد ان اعلمه بذلك .

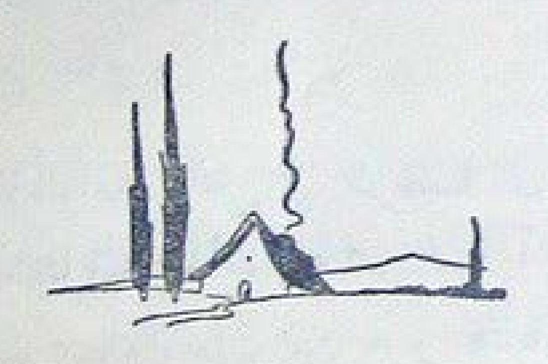
اما انا ، فقد عدتُ الى المدينة وبرفقتي ارداشيز أفندي ، فرأيت عند مخفر الكتاب ، أحدَ الجواسيس راكباً دراجة نارية يسوقها بسرعة جنونية ، ويحدث اصواتاً لترويع الناس . ثم رأيتُ نادر القدسي ، فسألني عن الوضع وقال : الناس خائفون . فقلت له : سترى كيف يزحف الناسُ لاستقبال ابراهيم بك . فقال لي : خذني معك لأرى ما تعمل ، فتوجهنا الى بانقوسا ، فرأيت الناس مجتمعين هناك . ثم اخذت معي رهطاً من الشباب المتحمسين ، وقصدت برية المسلخ حيث يقيم البدو الذين قصدوا حلب بسبب القحط ، وجمعناهم في الخان واطعمناهم . وبعد ذلك ، سرنا جميعاً الى قارلق فبانقوسا وهم يهزجون والشباب يهتفون : انظروا يا ناس فان البدو لم يخافوا ، وهم ذاهبون للقاء الزعيم هنانو .

وكنا ندخل الاسواق ، ونحن في طريقنا الى مكان الاجتماع في موقع الكازخانة . ولما انتهينا اليه ، رأينا فيه نحو خمسة آلاف نسمة ، وحينئذ توجهتُ الى أورم الصغرى ، وارسلت من يدعو هنانو الى حلب . وبينما كنتُ عائداً رأيت عند المدرسة الاميركية ، جماعة من الجنود الفرنسيين قاطعين الطريق ، فأوقفنا هناك الكابتن (دوفارج) . وكان بعض الجنود السباهيين مجردين سيوفهم ، فهجموا على الأهالي وراحوا يفرقونهم ويضربونهم .

وبعد فترة وجيزة ، وصل هنانو في سيارة تتبعها ستون سيارة من مستقبليه ، فأوقفوهم وقبضوا على هنانو ، وذهب الباقون ونحن في جملتهم ،

فعـــدنا سيراً على الأقدام . وبدأت أركض لألحق الناس ولأتمكن من اثارتهم . ولما وصلت الى مدرسة التجهيز ، رأيتُ الطلابَ متجمهرين يحيون هنانو ، فعلمت ان هنـانو قد وصل الى بيته ، فصحت بالطلاب ليس الوقت وقتَ هتاف وتحيات ، بل وقت مظـاهرات فاتبعوني ، فتبعني جمهور كبير منهم ، فمشينا الى جهة فندق السيد (بارون) وهنالك اعترضتنا الشرطة والجنود الفرنسيون ، وراحوا يطلقون علينا الرصاص ، ونحن نرجمهم بالحجارة ، فسقط قتيلان وبعض الجرحى .

وكانت الشمس قـد مالت الى المغيب ، فحملنـا القتيلين ودخلنا بحسيننا واجتزناها الى باب النصر . وفي اليوم الثاني ، أضربت حلب اضراباً تاماً استمرَّ خمسةَ عشر يوماً .



النضال في عام ١٩٣٢

في تلك السنة اعلنت الانتخابات . وكان في نية الفرنسيين ، أن يجمعوا مجلساً نيابياً من اعوانهم ، ليتمكنوا من عقد معاهدة موافقة لهم .

وكان في جملة مرشحيهم بركات والشعباني . أما مرشحو هنانو فكانوا الجابري والكيالي والسرميني وغيرهم . ورغب اليَّ هنانو في ان ارشح نفسي عن قضاء جبل سمعان لثقة أهله بي ، فأخبرته انني افضل ألا أترك حلب في هذا الوقت العصيب ، ولكنه أصرَّ عليَّ فقبلت .

وفي يوم الانتخابات الأولية ، توجهت الى قــرية أتارب لأراقب الانتخاب . وكان سليمان النيال مرشحاً معي . اما الفرنسيون فكان مرشحهم طاهر عبد الكريم ، وكان له بعض الأعوان ، فأفهمني سكان القرى المجاورة ان طاهراً يعرف انه سيخسر المعركة ، ولذا فانه يرغب في ان يثير أموراً تعكر الأمن ، ليتسنى للسلطـة ان تتدخل في الامر ، فرأيتُ ان أواجه القضية بحنكة سياسية ، فاجتمعتُ به وبدأت ألاطفه واتظاهر كأنني خائف من النتيجة ، فاطمأنَّ اليَّ وجازت عليه الحيلة .

وقبل انتهاء الانتخاب بربع ساعة ، أخبره الموظفون الجالسون الى الصندوق ، ان الاكثرية بجانبنا . ثم اخبروا السلطة بذلك ، فجاءني ضابط الدرك على رأس قوة من رجاله ، فدخل مكان الاقتراع ، واخرج الاوراق ومزّقها ووضع غيرها بدلاً منها ، فجُنَّ جنون الأهالي ، وأرادوا ان يهجموا على الصندوق ويفعلوا مافعله ضابط الدرك فمنعتهم ، وقلت لا يجوز لنا ان نسكت على هذا التعدي الفاضح .

وعدت الى حلب ، وقصدت بيت هنانو ، وكان مريضاً ، وسألته عن الوضع ، فأخبرني ان الفرنسيين يزورون الانتخابات ، وانهم مجتمعون بمكتب

ادمون رباط وناظم القدسي، وان ادمون قد اوقف، فتوجهت الى مكتب ادمون، فرأيت الشباب متجمهرين في الشارع، فصاحوا الحقنا ياجميل، فان التزوير قائم على قدم وساق، فصعدت الى المكتب، فكان فيه سعدالله وناظم وغيرهما من الاخوان، فصحتُ بهم هيّا بنا الى المشارقة لنحطم الصندوق. فادخلوني احدى الغرف، وارادوا ان يمنعوني، وخصوصاً ناظم، فعلا بيننا الصياح. فقال سعدالله: لايمكن أن نعمل شيئاً، فصحت لا بدَّ الاّ ان نفعل شيئاً. ثم انصرفت الى بيتي غاضباً.

وكان سبب طلبي الهجوم على صندوق المشارقة بالذات، ان خالي جلال القدسي كان موجوداً في مكان الاقتراع، ولا يستطيع ان يأمر بضربي والحاق الأذى بي، ولكنني لم اوفّق الى ما اردت.

بعد انتهاء الانتخابات الثانوية، حان انتخاب النواب، وكان الشعب في غليان شديد، فنظمنا مظاهرات كبرى، كما نظمنا مظاهرات من النساء سارت الى بيت صبحي بركات لتحدث فيه اعمالاً تخريبية. وسارت مظاهرة اخرى من الجامع الكبير، لحقت بالنساء المتظاهرات الى دار صبحي بك بركات، وسارت مظاهرة ثالثة من بانقوسا وقصدت الجميلية للتشويش. وبدأت القذائف والطلقات النارية تدوّي. وكنت وقتئذٍ في بيت سعدالله نعدُّ الترتيبات اللازمة، فصعدنا الى السطح، فرأينا النساءَ مشتبكات مع رجال الشرطة. ولولا وصول الدرك والسباهيين، لشققن طريقهنَّ الى بيت بركات. فرجعت النساء، وانضممن عند مفترق شارع بارون، الى المظاهرة القادمة من بانقوسا، وساروا جميعاً قاصدين بيت صبحي بركات ولكنَّ احتداماً ثانياً ما لبث ان وقع بين المتظاهرين وقوات الحكومة.

وفي هذه الأثناء، كان جمعٌ من النساء والشباب قد وصلوا الى بيت المحافظ نبيه المارتيني، وراحوا يصيحون بأعلى أصواتهم: يا خائن الوطن.

وكنت مع سعدالله نراقب الأوضاع من على سطح داره، فرأينا

الحالة متأزّمة جداً، والناس في شبه حرب. فقال لي سعدالله: اذهب الى بيت أخي فاخر، فذهبنا، وهناك كتب سعدالله برقية احتجاج.

وفي تلك الفترة، دخل علينا بعض الاخوان فصرفتهم، ولكن عندما حضر ميخائيل اليان بقيَ معنا.

وكنت أعلم أننا سنتوقف بعد قليل، ولذا فان كثرتنا لا تجدي نفعاً. ولكن من المستحسن، أن يكون بيننا أحد اخواننا المسيحيين. وما هي سوى بضع دقائق، حتى دخل علينا بعض موظفي الأمن العام، ففتشوا البيت، وخابروا المندوب هاتفياً، وأعلموه أنهم وجدوني مع سعدالله وميخائيل اليان، فأمرهم بأن يوقفونا جميعاً ففعلوا.

ولما كنا مرشحين، لم يكن في وسع السلطة إلاّ ان تخرجنا من السجن، فأخرجونا وأوصلوني الى داري، وكانت غاصّة بالأهالي. وحوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، جاءني رسول الحاج حمدُه العلي من أهالي السفيرة، وأحد الوطنيين المخلصين، وطلب اليّ ان اكون في صباح يوم الاقتراع في مركز القضاء، لأن الفرنسيين قد اخذوا عبرة من انتخابات سنة ١٩٢٨ وخشية أنّ يؤثر احد في المنتخبين الثانويين، نقلوا الصندوق الى مركز السفيرة، فرفضتُ الذهاب لعلمي ان التزوير قد لعب دوره، ولكنّ الرسول أصر عليّ بالذهاب، ففكرت في الأمر، وسألت الرسول عما اذا كان في السفيرة سلاح فقال: طبعاً. وفي الحال توجهت قاصداً السفيرة.

وعند قرية تل عرن، غاصت السيارة في الوحل. وبينما كنا نعمل على اخراجها من الوحل، جاء بعض رجال الدرك، فعرفوني وقالوا لي: لا تتعب نفسك: لأن الأمر قد بُتّ فيه، وجميع المنتخبين الثانويين موقوفون تحت تصرف الفرنسيين. ولكنني أبيت الا الذهاب الى السفيرة. فوصلت اليها، وذهبت الى بيت الحاج حمدُه، فرأيت عنده ٣٥ ناخباً

كانوا قد هربوا من السلطة. فانفردت بالحاج حمده وسألته عما عنده من السلاح فقال: عندي عشر بنادق ولكنها لا تكفي لأي عمل.

وكان الفرنسيون قد حشدوا قوةً من الدرك تدعمهم دبابتان، فعلمت ان الناخبين سيكونون معي وان لأعضاء المجلس البلدي - وفقاً للقانون - حق الاشراف على الصندوق، فسألت الحاج حمده عما اذا كان هؤلاء الأعضاء معنا فقال: طبعاً انهم معنا قلباً وقالباً. فاجتمعت بهم، واوصيتهم ان لايدعوا مجالاً لاضافة أوراق الى الصندوق، فوعدوني بذلك، واقسموا على تحقيق وعدهم، بالقرآن الكريم.

وفي اليوم الثاني، ذهبت مع سليمان بك الى دار البلدية حيث يجري الانتخاب. ولما ازف موعد التصويت وحضر اعضاء المجلس البلدي، قال لهم الكابتن «دوفارج» اخرجوا فلا عملَ لكم هنا. فاعترضتُ على كلامه وقلت له: ان القانون يجيز لهم البقاء هنا، فقال: هكذا اريد. فقلت له: انكم تريدون اذاً تزيفَ الانتخاب وخرجت فركبت سيارةً عادت بي الى حلب.

وكانت المظاهرات قائمةً في حلب. وبعد ظهر ذلك اليوم جاءني رسول الحاج حمده يخبرني ان الأصوات كلها ستكون بجانبنا، فلم اصدق وارسلت حسين الخربوطلي، يستطلع الخبر ويراقب فتح الصندوق، فعلم ان بعض المتجسسين اطلعوا على الحقيقة، فأعلموا الكابتن «دوفارج» بالامر، فدخل غرفة الاقتراع وفتح الصندوق، وعدّ الاوراق، فوجد انني ربحت تسعين صوتاً من بين ١٢٠، صوتاً، فهدّد وتوعد ومزق الاوراق وجاء بغيرها، واقفل الصندوق. ولما وصل وكيلي، كانت الاكثرية بجانب مرشحي الحكومة.

وهكذا كان الامر ايضاً في حلب، فقد فاز مرشحو الفرنسيين. وقبل اجتماع مجلس النواب بيومين، توجّه هنانو وبعض رفاقه وانا

منهم الى دمشق. وعندما وصلنا الى حمص، دخلنا مطعم المحطة لنتناول طعام الغداء. وبينما نحن كذلك، اذ دخل «دوفارج» فحيانا فردّ عليه ادمون رباط التحية. أما انا فلم اجبه، فجاء إليّ وقال: لماذا لم ترد عليّ السلام، مع انك أنتَ الغالب. ثم تمّ علينا الامر، فتصافحنا وتناولنا طعام الغداء معاً، ثم ذهبنا الى دمشق، لنحولَ بين صبحي بركات، وبين رئاسة الجمهورية التي كان يطمع بها. فعقدنا اجتماعات، وقمنا بمداورات انتهينا منها الى ان يُنتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية. ثم عدنا الى حلب.

بعد مدة، رأينا أن نشكل وفداً يقصد دمشق للاحتجاج على المجلس النيابي المزوَّر، على أن يكون على رأس الوفـــد ابراهيم هنانو. ثم رأى الاخوان ان اكون انا مع الوفد، وهناك نلتقي مع ابراهيم وسعدالله، فجمعنا جموعنا، وبلغنا اخواننا من حماه وحمص ان يؤلفوا وفديهما.

وفي اليوم المعين، صحبت الوفد الحلبي. وعند وصولنا الى حماه، استقبلنا وفدها عند القصير، ودخلنا البلدَ، وكانت الطرق غاصة بالمستقبلين.

ثم جاءنا بعض الشباب، طالبين الينا أن نذهب الى دار الدكتور توفيق بك الشيشكلي، وقد ظنّ الشباب انني أنا ابراهيم هنانو، فأركبوني فرساً. وكان معي ابن أخي الدكتور مصطفى، فظنوه طارقاً بن ابراهيم بك، فأركبوه على جواد، وراحوا يهتفون ويصفقون. فقلت لهم: يا إخوان، لست ابراهيم هنانو، أنا جميل ابراهيم باشا. فتقدم مني رجلٌ مسنٌّ وقبّل ركبتي وقال: متى يتسنى لنا أن نقوم بالثورة؟. وبعد قليل وصلت الى بيت الشيشكلي، حيث القيتِ الخطب الحماسية. ثم صحبنا وفـــد حماه، وتوجهنا الى حمص. وعند مدخل البلد اعترضنا رهط من رجال الشرطة والدرك، وحاولوا اعادتنا من حيث أتينا، ولكنّ الحمصيين اندفعوا واصطدموا معهم. وفي أثناء ذلك، دخلنا البلد من جانب خاص واجتزناه الى طريق الشام، فوصلنا اليها حوالي العصر.

حيث كانوا مجتمعين ، فرأيت سعدالله في الصالة ، فسألته عن الخبر فقال لي بغضب : لا أدري ، اسأل هنانو .

فدخلت على هنانو ، فرأيته جالساً مع هاشم بك فقلت لهما : أحسب ان ماسمعته غير صحيح ، لأن رجلاً كجميل مردم لا يمكن ان يخرج من الكتلة . واذا كان الامر صحيحاً ، فان الفرنسيين سيستفيدون منه ، فأخبرني ابراهيم ، أنهم كتبوا بياناً بفصل جميل مردم ، وان هذا البيان سينشره يسير ظبيان في جريدته ، فخرجت على جناح السرعة لأسترد البيان . وبعد ان بحثت عنه ، رأيته وطلبتُ منه ان يسلمني البيان ، فادعى انه ليس معه ، فأخرجتُ مسدسي وصوبت فوهته الى صدره وقلت له : إمّا ان تخرجه من جيبك ، واما ان اخرج رصاصةً تمزق صدرك . فلم يرَ بدّاً من اخراجه . فأخذته ومزّقته ، وأوعزت الى عبد الكريم العائدي وشفيق سليمان ، ان يجمعا جمهوراً من الشباب ، وان يتبعوني الى دار الحكومة ، حتى اذا خرج منها جميل مردم ، حملناه على الأكف ، وسرنا به في مظاهرةٍ حافلة .

ثم ذهبت الى جميل مردم وقلت له : أرى أنّ عنادك وعناد اخواننا مضر بمصلحة البلاد ، وأرى انك على حق ، ولكن قاتل الله الحسد . والرأيُ عندي ان تساير الأمر ، وان تخرج من الوزارة . ثم اعلمته ان الشباب بانتظاره ، وأنهم كلهم معه . وعندئذٍ جمع اوراقه ، وكتب ورقة استقالته ونزلنا ، فحمله الشباب على ايديهم في مظاهرة كبرى . وسرت الى هنانو وبيّنتُ له ما كان ، ففرح وانشرح صدره .

*

بعد نحو شهرين ، اشيع ان شاكر الشعباني باحث الفرنسيين بشأن عقد معاهدة . ولما بحثنا عن صحة هذه الاشاعة ، علمنا ان المعاهدة قدمت الى المجلس النيابي للمذاكرة والتصديق .

وبما ان المعاهدة، ستكون بلا ريب محققة لأماني الفرنسيين، ومجحفة بحقوق البلاد، فقد اصبح من واجبنا ان نسعى لرفضها.

ولكن كيف يتم لنا ذلك، وأكثرية المجلس من النواب الموالين لفرنسا؟.

وبالرغم من ذلك، فقد توجه ابراهيم هنانو وسعدالله وبعض الاخوان الى دمشق، للحيلولة دون تصديق المعاهدة. وطلب الي ان ابقى في حلب لمراقبة الاوضاع.

وبينما كنت في احدى الليالي سهران في النادي، جاءني عارف القباني وقال لي: لقد اتفقنا مع فاضل جابر وخالك جلال قدسي - وكانا من جماعة صبحي بك بركات - ان يذهبا مع من أريد الى دمشق، ليبذلوا جهدهم لدى صبحي بركات واعوانه، ويحملوهم على رفض المعاهدة. فرأيت ان ذهاب هذا الوفد موافق، فتوجهت مع المذكورين ومع بعض الاخوان الى دمشق، وقابلنا فيها ابراهيم هنانو وسعدالله، وكان الى جانبهما ناظم القدسي ونجيب باقي وسواهما، فسألني ابراهيم عن سبب مجيئي، فبينت له الغرض منه، فلم يرق له، وقال بعض الاخوان، إنّ في مجيئنا الى دمشق دعاية لصبحي بركات، فأصررت على ان عملنا مفيد، ولكن سعدالله - وكان يكره صبحي بركات - أصرّ على ان في عملنا دعاية لابن بركات. وهنالك لم يعد في وسعي، إلاّ ان أغادر انا ومن معي، الفندق الذي كان فيه هنانو واخوانه.

على أن سعدالله لحق بنا واسترضانا. فقلت له ان في عملنا فائدة كبرى ستحققونها قريباً، فوافق على أن نمضي في ما عزمنا عليه.

وكان الوفد الذي جئت به الى دمشق، مؤلفاً من الحاج مصطفى شبارق وعلي جاموس والحاج قواس المعروفين بوطنيتهم الصادقة وممن اذا عزموا على شيء نفذوه، فطافوا على النواب، وهددوهم بالقتل اذا هم اقروا المعاهدة،

فكان لهذا العمل تأثير عظيم. ولما رآني ابراهيم بك في اليوم الثاني في فندق «فيكتوريا»، ادخلني الى غرفته وقبلني وقال: لقد أصبتَ في رأيك وقد مرَّ عليَّ هنا عشرة أيام، لم أرَ خلالها نائباً من النواب، حتى غالب بك لم يأتِ اليَّ. وفي هذا اليوم جاءنا النواب زرافات، ووعدوني برفض المعاهدة.

وعند العصر زارني ناظم القدسي وقال لي: ان ابراهيم بك يرغب في مقابلتك. وعندما قابلته قال لي: عليك ان تذهب الى حلب في الحال، وان تعرّج في طريقك على حمص وحماه، لتخبر اخواننا بأن يعمدوا الى الشغب والمظاهرات اذا صُدقت المعاهدة. فخابرتُ حمص واخبرت اخواننا ان ينتظروا مجيئي. ولما دقت الساعة العاشرة مساء كنت في حمص، فرأيت عند مدخلها الحاج سليمان المصراني ومعه بضعة شباب، فذهبنا الى بيت مظهر باشا رسلان، وعقدنا فيه اجتماعاً أخبرتهم فيه برغبة الزعيم هنانو.

وعند الفجر غادرتُ حمص الى حماه، ودخلت بيت رئيف الملقي، فرأيت جمهوراً من الشباب في انتظاري، فأعطيتهم التعليمات اللازمة، وأكملت طريقي الى حلب.

وحوالي الساعة السابعة والنصف، كنتُ عند خان الحرير أقول للناس الذين جاءوا لفتح محلاتهم، أغلقوا محلاتكم اليوم. ثم جمعت رهطاً من شباننا، وأوصيتهم ان يعملوا على اغلاق البلد، وأرسلت الى الدكتور عبدالرحمن الكيالي اخبره ان يوجّه الى رجال الكتلة دعوةً لعقد اجتماع في بيته.

وفي المساء، ذهبت وأخي الدكتور الى بيت الكيالي. وكان هناك ادمون رباط ونعيم انطاكي والسرميني ورشدي كيخيا وغيرهم، فاخبرتهم بما صنعناه في دمشق وحمص وحماه، وقلت غداً صباحاً سنجتمع مع اهالي

البلد في الجامع الكبير ، وسنترقب النبأ الذي سيصل الى مكتب نعيم انطاكي من دمشق ، فاذا رفضت المعاهدة عدنا الى بيوتنا هادئين مسرورين ، واذا لم ترفض قمنا بمظاهرة صاخبة . وبعد مداولات عديدة قررنا الذهاب الى الجامع .

وعند الصباح توجهت انا وأخي حسن بك والدكتور الكيالي ، وكان شبابنا قد جمعوا جموعهم هناك . فدخلنا الجامع ، وكان يغصّ بالناس . وخشية ان يهرب المجتمعون ، أقفلتُ الأبواب واخذت مفاتيحها ، ورحنا ننتظر قرار ابراهيم بك .

وخطب الدكتور الكيالي ، وبيّن للمجتمعين القصد من هذا الاجتماع ، وطلب منهم ان يبقوا في الجامع ، ريثما يصل من دمشق الجواب الشافي .

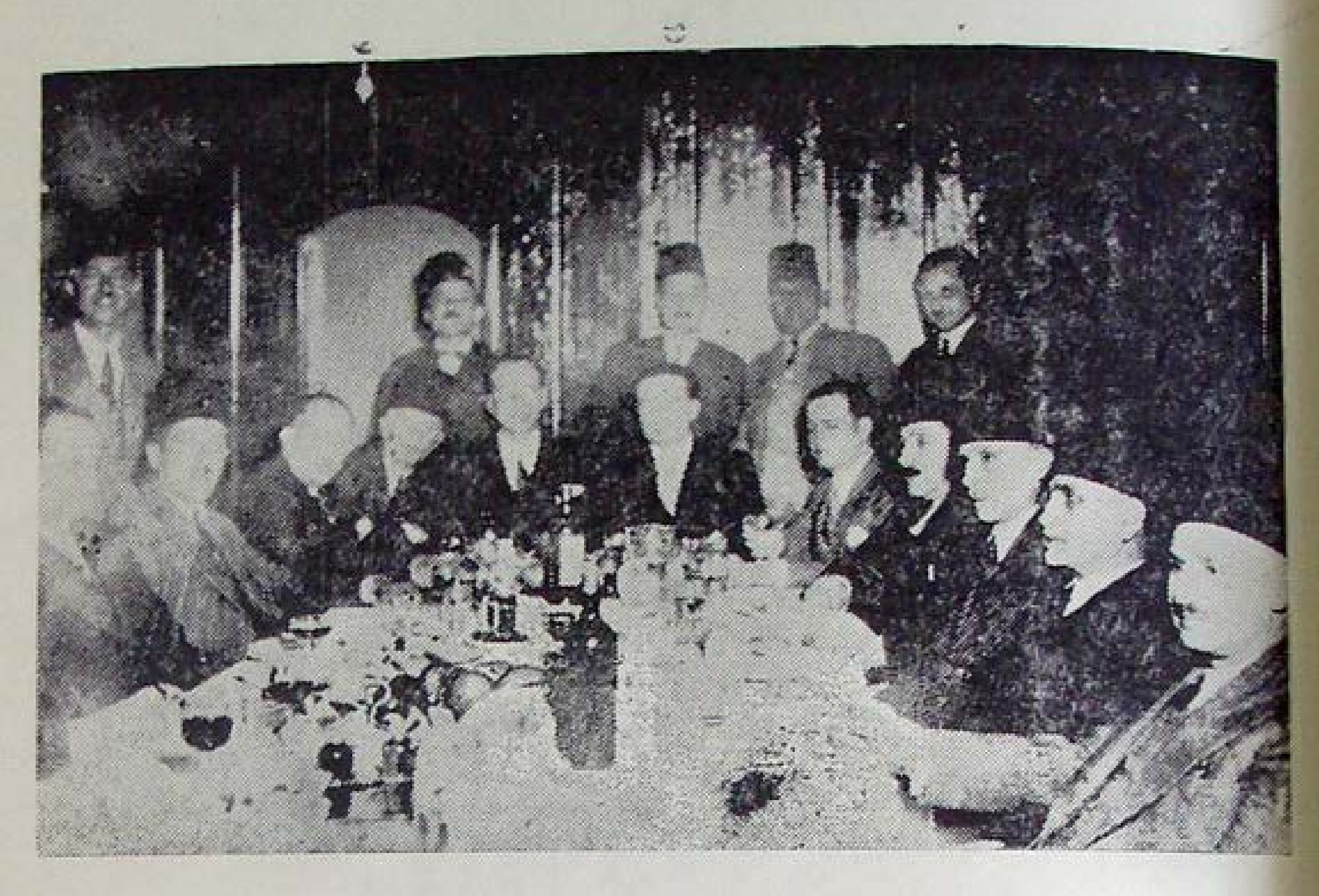
وكان الفرنسيون قد حشدوا رجالهم عند قسطل الحجارين ، ونصبوا رشاشاتهم على اسطحة بعض المنازل ، وعند دكان الأفندي .

وفي الساعة العاشرة تماماً ، أتانا كاتب نعيم انطاكي ، وأخبرنا ان ابراهيم بك قد اخبر من دمشق ، ان المعاهدة قد رفضت ، فبشّرنا المجتمعين بذلك ، فصاحوا : الله اكبر ، الله اكبر . فنهضت وقلتُ : ايها الاخوان ، ارجو ان تخرجوا من سوق « السرماياتية » ، لكي لا تصطدموا بالفرنسيين . ثم خرجنا عائدين الى منازلنا .

ولما رأى الفرنسيون ان النواب قد خالفوهم ، حلوا المجلس النيابي .

ولم يكتفِ الفرنسيون بذلك ، بل عمدوا الى بذر التفرقة ، وحاولوا ان يقوموا بعمل منتج ، فأوعزوا الى الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الوزارة ، ان يأتيَ الى حلب بصحبة محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية ، على ان يُعدّ لهم استقبال حافل ، وعلى ان يأتيا الى الجامع ويعظا الناس .

ولما علمنا بهذا الأمر ، بدأتُ اتصل بالشعب واحرّضه على عدم الاشتراك في الاستقبال . وكان الشعب يحبني ويصغي الى نصحي . غير ان



زعماء الكتلة الوطنية وكبار اعضائها

وهم من اليمين : الدكتور عبدالرحمن الكيالي وهاشم الاتاسي وابرهيم هنانو ونجيب البرازي وليون زمريا وأدمون رباط ونعيم انطاكي وجميل ابرهيم باشا واحسان الشريف وشكري القوتلي وميخائيل اليان

ويبدو سعدالله الجابري واقفاً الى الشمال مع بعض اعضاء الكتلة الوطنية

ميخائيل اليان ورشدي الكيخيا وناظم القدسي كانوا يقولون لهنانو عندما يعودونه في مرضه : يبدو لنا ان الناس سيشتركون في الاستقبال ، فكان هنانو يميل الى تصديقهم . اما انا ، فكنتُ اعرف غير هذا ، واؤكد انه لن يشترك احد .

وجلسنا بعدئذٍ في بيت هنانو نراقب المستقبلين ، فلم نبصر سوى الموظفين وطلاب المدارس الابتدائية الذين لا يتجاوز عمر أكبرهم السبع سنوات . وعند الساعة الخامسة مرَّ الموكب المؤلف من الموظفين ، فالتفت وقلت لأولئك الذين اخبروا هنانو ان الاستقبال سيكون حافلاً : أرأيتم ما صنعت ؟

ثم خرجتُ من بيت هنانو ، وفي نيتي ان ألقي داخل أوتيل بارون قنبلة يكون لصوتها دويٌ هائل يثير الهلع والفزع . وبالفعل فقد احضرت أحدَ اعواننا ، واعطيته القنبلة ، واعلمته بما يجب عمله . وفي الوقت المعين ، توجَّه وقام بمهمته على احسن وجه . اما انا فقد تواريتُ عن الانظار ، واختفيت في بيت محمد السباعي بحي العقبة .

وفي اليوم الثاني ، ذهبت الى بيت ابراهيم بك ، فرأيت فيه بعض الاخوان ، وفي جملتهم سعدالله . وحين علموا بما صنعت اثنوا عليَّ .

ثم علمت من الدكتور فرج الله ، أن الرئيسين سيذهبان إلى الجامع ويجلسان على السدة مع والي حلب نبيـــه المارتيني ، فقررت ان اعرقل هذا العمل ، وأرسلت ليلاً بكور جاموس وحسين خربوطلي ليحتلا السدة ، بيد ان الفرنسيين علموا بذلك واوقفوهما مع رفاقهما .

وفي اليوم الثاني وقبل موعد صلاة الجمعة ، جاء الى بيتنا سعدالله وابراهيم واحمد خليل المدرس والدكتور الكيالي وناظم القدسي والاستاذ السرميني لنذهب معاً الى الجامع ، فاقترحت عليهم ان نخرج من القناق ونسير

الى باب النصر ، ومن هناك نسلك طريق المحكمة الشرعية فالسويقة فالجامع، فقالوا : ولمَ تريد أن نطيل طريقنا ؟. فقلت لهم سترون . ولما رآنا الناس سائرين، سألوني إلى اين انتم ذاهبون ؟ فقلت لهم : الى الجامع ، فتبعنا اكثر من خمسمائة شخص . ثم ازداد هذا العدد بكثرة ، حتى تجاوز الف شخص.

وكان الفرنسيون محتشدين أمام باب الجامع ، وعلى طرفي الطريق القريب منه ، وقف صفان من البوليس الوطني والفرنسي . ولما رأى رجال الشرطة الوطنيون ابراهيمَ هنانو ، حيوه ودخلنا الجامع . وكان يعجُّ بالاهالي فاقتربوا منا وقالوا : لقد شغل السدة رجال التحري ، وعلى رأسهم قائد الدرك . فقلت لهم : لا بأسَ ، فانا سنأخذها عنوةً .

وكان سعدالله يرغب في أن نبقى بين المصلين ، ولكنني مع اخي حسن بك ، أبينا إلا أن نحتلَّ السدة ، فتقدم ابراهيم بك وصعد اليها ، فقام من كان عليها اجلالاً له . على ان رجال الحكومة وقفوا سداً ليمنعوا اخوان هنانو من الوصول اليها . غير ان اخي الدكتور اقتحمهم قسراً ، وبدأ ابناء عمنا يدفعون رجالنا الى داخل السدة ، فلم يسع الذين كانوا فيها إلا ان يخلوها ، وقلت لقائد الدرك امين جلبي ، وكان رفيقي في الجيش: توارَ فان الحالة متوترة ، فترك السدة وذهب . ثم اوصيت شبابنا ان يحيط كل اثنين منهم بحارس ، وأن يكونوا متأهبين للطوارىء ، حتى إذا وقعت الواقعة ، ألقوهم على الارض وانتزعوا منهم أسلحتهم .

وبعد فترة ، أنهى الخطيبُ كلامه ، وازف موعد الصلاة ، ووصل علي العابد رئيس الجمهورية ، والشيخ تاج الدين رئيس الوزارة ، ووقفا عند الباب، فأحضروا لهما سجاداً بسطوه على الارض أمامهما ليصليا عليه . وخشية أن يلقيَ احدهم خطاباً على المصلين ، وضعت بيد رجل أبله يدعى « ابو اصطيف » مجيدياً واحداً وقلت له : إذا قال الامام السلام عليكم ورحمة الله ، اخلع حذاءك والقهِ على رأس الشيخ تاج الدين ، وإياك ان تقوم بهذا العمل قبل ختام الصلاة . فقال : سمعاً وطاعة . ثم أخبرت وجيه المهادي ان يراقب الأمر بدقة .

ولكنَّ ابا اصطيف ، أحضر من المستراح ابريق ماء ، وراح ينتظر . وعندما قال الامام تلك الجملة ، بدأ ابو اصطيف يوجه الى الرئيسين سيلاً من السباب والشتائم ، ثم القى عليهما ابريقَ الفخار ، فسقط امامهما وتكسر ، بعد أن سال منه الماء .

ولا تسل عما حدث وقتئذٍ من هرج ومرج . فقد خرج الرئيسان ، وراح الناس يركضون الى الابواب . وسمع الفرنسيون بذلك ، فأوقفوا أشخاصاً كثيرين .

وأشرت على ابراهيم بك ان نبقى موضعنا ، على ان يخرج الدكتور الكيالي وناظم القدسي ، حتى إذا اوقفوهما رأينا ما يجب ان نعمله .

وبعد قليل ، علمنا ان ناظم القدسي قد أوقف عند خروجه من الجامع . وبقينا في الجامع برهةً اخرى ، ثم رأينا ان نتسلل منه ونخرج الى بيوتنا ، ولكن الشرطة لحقت بنا واوقفت بعضنا ، واصرت على ان لا تزعج ابراهيم بك وحاولت اللحاق بي ، ولكنَّ الشباب الذين كانوا ورائي ، استطاعوا ان يوجهوا رجالَ الشرطة الى وجهةٍ اخرى . وبعد ساعة أتى ادمون رباط وقال لي : ان سعدالله وحسن بك قد تواريا عن الانظار ، وان الحكومة قد القت القبضَ على فريق من شبابنا وان السرميني والقدسي وكثيراً من الموقوفين قد وضعوا في سيارات نقلتهم الى حيث لانعلم ، فاختفِ انت لنرى ما يكون .

وعند المساء ، لبستُ عباءتي ، ووضعت على رأسي الكوفيه والعقال ، وذهبت الى دار محمد السباعي في العقبة . وقد علمت ان الفرنسيين قد استاءوا كثيراً لعدم تمكنهم من إلقاء القبض عليَّ ، فدخلوا الجامع ، وراحوا يبحثون فيه عني . ومما يدعو الى الضحك ، انهم رفعوا السجاد وفتشوا تحته . وكان احد المصلين يقرأ القرآن ، فالتفت اليهم وقال لهم : أوَ تظنون ان جميل « ورق سيكارة » حتى تفتشوا عنه بين السجاد .

وسيق الموقوفون الى المحكمة المختلطة، وأجريت محاكمتهم بموجب قانون قمع الجرائم، فحكموا على سعدالله وعلى أخي والسرميني بالسجن ستة أشهر، وحكموا عليّ غيابياً بالمدة نفسها. وعندما انقطع البحث عني، ذهبت متخفياً الى بيتي الذي كنت اقعد فيه نهاراً، واختفي عند المساء. وفي ذات يوم، جاء ادمون رباط وقال لي: ان نائب المحكمة المختلطة منير سمعان قال له: يجب ان يستأنف الحكم، لأتمكن من اصدار مذكرة باسترداد التوقيف. ثم اخرج من جيبه استدعاء وقعته له. وفي اليوم التالي، صدرت مذكرة الاسترداد، فخرجت الى بيت ابراهيم هنانو.

وجاء يوم المحاكمة، فتقدم كثير من المحامين للدفاع عني، فشكرت لهم ما أبدوه من حمية ومروءة، ولم أشأ ان اجعلهم عرضة لنقمة الفرنسيين.

وافتتحت الجلسة فقال لي رئيس المحكمة: لقد تأكدنا انك انتَ المحرض على القيام بهذه الأعمال المخلة بالامن، ولكننا نحبُّ ان نعرف كيف تمكنت من الهرب. فقلت له: ومن قال لكم بأنني انا المحرِّض على تلك الاعمال؟ فقال: هذا تقرير مدير الامن العام يؤيد ما نقول. فقلت له: ما دمتَ تعتقد ذلك، فعليك أن توجه هذا السؤال إلى مدير الامن العام، وتستوضح منه كيف ترك لي مجال الهرب. واني أرى انه على المحكمة ان تدين مدير الامن العام، لانه لم يقم بواجبه على ما يرام. وهنا ضحك الحاضرون لهذا الكلام، وقطب مدير الامن العام حاجبيه، وعلت وجهه حمرةُ الخجل. وأخيراً اصدرت المحكمة حكمها عليّ بالسجن خمسة عشر يومـــاً، ولكنني استبدلتها عن كل يوم بثلاث ليرات وخرجت.

وبقيت الحالةُ هادئةً إلى ان خرج سعدالله واخي والسرميني من السجن. ثم فتحنا مقراً لمكتب الكتلة الوطنية، وبدأ الناس يتوافدون اليه، ورحنا نعقد فيه اجتماعات تُلقى فيها خطبٌ تحثُّ الناس على حبِّ الجهاد، والبذل في سبيل القضية الوطنيه.

تشكيل الحرس الوطني

خطر لي ، ان اشكل حرساً وطنياً يكون نواةً صالحة للجيش السوري فأخذتُ في اول الامر ، اجمع الشباب خفيةً في دارنا ، واعمل على تدريبهم.

وكان يساعدني في هذا العمل ، الشيخ معروف الدواليبي وجميل غازي . وكان يتولى التدريب العسكري نادر الساطي وغيره من الشباب المثقفين الاوفياء . ولم يطل بنا الامر ، حتى اظهرنا حركتنا ، وابتدأنا ندرّب الحرسَ الوطني في برية المسلخ ، فاغتاظ لذلك الفرنسيون .

وفي ذات يوم ، بينما كان بعض افراد الحرس الوطني راجعين من التدريب ، اعترضتهم عند قسطل الحجارين ، قوة من الفرنسيين ، فقاومهم شبابنا ، ولكنّ الفرنسيين القوا القبض على جماعة منهم .

وخطر لي أيضاً ، أنْ أهيىء قوةً عمالية يمكن الاعتماد عليها في الملمات ، فاستدعيتُ السيد مصطفى جلب ، احدَ كبار المشتغلين بصناعة الاحذية ، وبينت له فكرتي فاستحسنها ، وأبدى رغبته في العمل على كل ما يفيد الوطن ، ثم دعوت سواه من المشتغلين بالصناعات الاخرى ، فلمست منهم الاندفاع والتأييد .

وما هي سوى أيام قليلة ، حتى شكلتُ نقابةً دعيت « نقابة عمال الاحذية » واصبحت ذات مكانة قوية في هذا البلد .



جهادنا في عام ١٩٣٦

في سنة ١٩٣٦ ، تكاثر عدد الحرس الوطني ، وازداد اقبال الشعب على تأيدنا ازدياداً عظيماً . وكان مكتب الكتلة الوطنية ، يغص كل يوم ، بألوف من رجال الاحياء ، فغضب لذلك الفرنسيون ، وأرادوا اغلاق المكتب .

وفي صباح ذات يوم ، بينما كنت في المكتب مع الدكتور اخي والسرميني والحاج علي سيرجية والحاج مصطفى شبارق ، علمنا ان قوة من الشرطة ، وعلى رأسها مدير الامن العام ، مرابطة عند الباب ، فعرفنا انهم سيدخلون علينا . ولما كنت احمل بعض الاوراق السرية ، فقد قمت بحرقها فوراً . وما هي سوى دقائق معدودة ، حتى دخل مدير الامن العام وبعض رجال الشرطة ، ففتشوا المكتب دون ان يعثروا على شيء . فارادوا ان يتحرّوا اخي ، فمانع وابى ان يفتشه احد ، فقال له مدير الامن العام ، اتقسم بشرفك انك لا تحمل اوراقاً سرية ؟ فقال له : نعم اقسم على ذلك . ثم انهم اخرجونا نحن ومن كان في المكتب ، فخرجنا واخذنا نترقب نتيجة عملهم ، فاقفلوا الباب ، وختموه بالشمع الاحمر ، وتركوا ثلاثة من رجال الشرطة يحرسون الباب . فصحت بالمجتمعين هيا بنا الى « القناق » ، فتحمس الناس وتبعونا ، وشرع الاهالي يتوافدون علينا ، واخذت اهيء مظاهرة ليوم الجمعة . ثم اعددت هيئة مهمتها فتح المكتب ، وكسر الباب مهما كلف الامر . ووضعت على رأس هذه الهيئة ، حسين الحربوطلي والحاج مصطفى ضعضع ومصطفى المصري . ولكي يبقى عملنا مكتوماً ، اخرجت من جيبي قطعة صغيرة من الورق ، وكتبت على القطعة اسم رئيس المظاهرة والخطيب الحاج نجيب باقي ، الذي سيصلي في جامع الجلوم ، وبعد الصلاة يخرج بالمصلين ، فيتجول في المنطقة ، ثم يتوجه الى باب الفرج . وكتبت على الورقة

قسم من فرقة الفرسان التابعة للحرس الوطني عام ١٩٣٦

فرقة الدراجات النارية التابعة للحرس الوطني

الثانية ، اسمَ عبداللطيف الرفاعي ، ليصلي بجامع العثمانية ، ويخرج بالمصلين الى منطقة السراي وتحت القلعة وما حولها . وكتبت على الورقة الثالثة ، اسم احمد جمالي ، وعهدت اليه بمنطقة بانقوسا وتوابعها .

أما انا ، فقد صحتُ بالناس : غداً ستخرج المظاهرة من الجامع الكبير ، فكونوا مستعدين ومسلحين ، لأننا لم نعد نستطيع صبراً . وكان قصدي من ذلك ، ان اوهم من قد يكون بين المجتمعين من جواسيس ، ان مظاهرة ستخرج من الجامع الكبير ، ليختلط عليهم الامر . ثم دخلت الصالة ، وكان قد اجتمع فيها ، سعدالله وميخائيل والدكتور الكيالي واحمد خليل المدرس وصلاح الدين باقي ونعيم الانطاكي وغيرهم ، وبينت لهم فكرتي ، فاستحسنها بعضهم ، وشاء بعضهم الآخر ان يعترض عليها . وكان اشدهم اعتراضاً سعدالله الجابري الذي قال : انني لا اوافق على هذا العمل ، لان دمشق لم تقم بحركة حتى الآن . فقال له صلاح باقي : اذا شئتم ذهبت الى دمشق لارى وضع اخواننا فيها ، وسأخبركم بما سيكون ، فوافق المجتمعون على ذلك . وفي الحال ، سافر صلاح الى دمشق . ولما وصل اليها ، شاهد المظاهرات قائمةً فيها ، فعاد في مساء ذلك اليوم ، واخبر سعدالله ، بأنه ابصر منذ الفجر ، جميل مردم بك على رأس المظاهرة ، وسمع ازيز الرصاص يصم الآذان .

وفي الساعة الحادية عشرة ، أي قبيل صلاة الجمعة ، جاء سعدالله واحمد خليل المدرس ، والدكتور عبدالرحمن الكيالي وميخائيل اليان وصلاح باقي وغيرهم وقالوا لي : هيئاً اصنع ما اعلمتنا به امس ، فشئت ان امازحهم ، فقلت لهم : لم يبقَ لصلاة الجمعة الا القليل ، ولا استطيع ان افعل شيئاً ، فهل تحسبون ان الناس ورق لعب احركه بيدي كيفما شئت ؟ فقالوا لي : انك تستطيع ان تفعل ما تريد في بضع دقائق .

وبقيت اناقشهم واحاولهم ، حتى صاح مؤذن جامع العثمانية : الله اكبر . هنالك قلت لهم وانا ابتسم : عودوا الى بيوتكم كيلا يلقى القبض علينا

كلنا، لانني صنعتُ ما حدثتكم به امس . وقبل ان تصلوا الآن الى باب النصر، ستسمعون دويَّ الرصاص . فقاموا ولم يصلوا الى باب النصر، حتى لعلع الرصاص في الفضاء، وسرتُ على رأس مظاهرة خرجت من «القناق» لتضرب مخفر باب النصر، ولتشغل الشرطة، ولتحول بينهم وبين الوصول الى جامع العثمانية .

وكانت حلب تغلي كأنها مرجل . وفي تلك الاثناء اقبل عليَّ حسين خربوطلي ورفاقه واخبروني انهم كسروا باب المكتب، وطردوا رجال الشرطة من امامه . وقد جيء باديب نعسان مغمى عليه .

وكان الناس قد تجمعوا عندنا حتى ضاق بهم بيتنا على رحبه . وبعد قليل، دخلت ام اديب وهي تبكي وتنتحب انتحاباً يمزق الاكباد وتقول : ولدي اين ولدي ؟ فقلت لها : لا تخافي لقد ارسلناه الى الطبيب صبحي غازي، ولعله الآن في البيت . فقالت : انا لست خائفة لانه استشهد في سبيل الوطن ولكني اريد ان اراه وهو شهيد . فكان لكلامها اعظم تأثير في نفوس الحاضرين، فصاحوا بصوت واحد : هيَّا لنخرج، فخرجوا جميعاً في مظاهرة قوية، سار قسم منها من جهة حمام القاضي، وقسم ثان من باب النصر، واشتبكوا مع رجال الشرطة في معركة حامية الوطيس . وكان من يُجرح من المتظاهرين، يحمل الى عيادة الدكتور صبحي غازي وكان المتظاهرون، يعودون الى «القناق»، ويصعدون الى الاسطحة ، ليردوا من يحاول ان يقترب منهم من رجال الشرطة . ولم يكن على رأس المتظاهرين سواي وسوى أخي الدكتور حسن .

وبقينا على هذه الحالة ستة ايام ، كلما جاءت قوة من الشرطة ، امطرناها بوابل من الرصاص ورددناها على اعقابها . اما الطعام فكان يذهب بعض شبابنا من باب الحديقة ويأتون به .

ولم يكن من الممكن البقاء على هذه الحالة ، فقررتُ اخراج الناس تدريجياً من باب الحديقة ايضاً . ولم يبقَ من الالفي شخص الذين كانوا

عندنا ، سوى خمسين شخصاً ، ابوا ان يتركوني . فقلت لأخي : اذهب أنت ايضاً من باب الحديقة الى بيت حسني بك ، ومن هناك اذهب الى بيت عمتنا . فقال : لن اترك الناس واذهب ، ولكنني الححتُ عليه واكدت له ، انه ليس من المصلحة العامة ان يقبض علينا معاً ، فذهب .

وما كاد يخرج ، حتى اقتحمت « القناق » قوة من رجال الحكومة ، وهم يطلقون عيارات نارية لم تزل آثارها بادية على جدران غرف « القناق » فقبضوا على من كان هناك من الشباب ، ووضعوهم في الغرفة الكبيرة . ثم قبضوا عليَّ ووضعوني معهم .

وانه لمن الانصاف ان اذكر هنا ، ما أبداه نحوي مدير الامن العام من الاحترام ، فانه عندما رآني ، رفع قبعته من على رأسه دلالةً على احترامه إياي . أما المفوض ، وهو ابن وطني ، فقد قال لي وهو يدفعني الى الغرفة : « بدك حرية تلحس . . . هيه » فصحت في وجهه ، هذا كلام لا تجرؤ على قوله في غير هذا الوقت . وسمع مدير الأمن العام الصياح ، فسأل عن السبب ، فأخبرته بما قال المفوض ، فرفع يده وصفعه صفعةً موجعة ، وطرده من امامه . وبعد قليل وصلت ثلة من الجيش ، ونقلتنا الى السجن . وكان أبناء الشعب عند باب النصر على الاسطحة ، يرشقون الجيش بالحجارة ، ولكني رأيت ان الاصطدام يعود علينا بالخطر ، فقال لي الضابط : قل لهؤلاء ان يكفوا عن عملهم وإلا كنتم عرضة لخطر محقق ، فاضطررت الى ان اطلب من انصارنا ان يكفوا عن قذف الحجارة .

وفي الطريق ، عند قسطل « الموينه » ، هجم فريق من شبابنا يريد انقاذنا ، فوقع بينهم وبين الجيش الفرنسي اصطدام استشهد فيه شابان من شبابنا . وفي النهاية دخلنا السجن . وبعد مضي عشرين يوماً ، جاء الى السجن معاون المندوب ، وطلب مقابلتي ، فاخرجوني اليه ، فقال لي : انا نعلم جيداً انه لا علاقة لك ولا لاخيك بالاجنبي ، ولهذا فاننا نحترمكما . وقد جئت لأقول لك : ما لك ولهذه الأعمال ، فنحن مستعدون ان نسند اليك الوزارة التي

تريدها ، كما اننا نعلم انك لستَ من الأثرياء ، ولهذا فاننا نعطيك ما يكفيك من المال . قال هذا ، واخرج من جيبه كدسةً من الاوراق النقدية ، فقلت له : انني لم أعمل ما عملت لنيل وزارة ، أو لربح مادي ، ولكننا مستعدون ان نتفاهم معكم تفاهماً نزيهاً . وكل ما نطلبه ، هو ان تعترفوا باستقلالنا ، على ان نعترف نحن بعصا الحكم في هذه البلاد ، فلم يرق كلامي للمندوب . وكان بكري محوك في الغرفة المجاورة ، وقد سمع ما دار بين معاون المندوب وبيني ، وابصر بأم عينيه كدسة الاوراق المالية التي عرضها عليّ ، والتي رفضتها بكل شمم وإباء .

وعُقدت في دار البلدية جلسةٌ لمحاكمتنا ، فطلب النائب العام الحكم عليّ خمسَ عشرة سنة ، لأنني المحرّض الأول ، على الشغب وقيام المظاهرات وتعكير الأمن ، فقلت له فوراً : وهل أنتم باقون في بلادنا خمس عشرة سنة ؟ فقهقه الحاضرون ضاحكين ثم رفعت الجلسة .

وبينما كنت في السجن ، علمت ان أخي الدكتور وسعدالله الجابري قد حكم عليهما بالنفي الى الجزيرة . وبقيت في السجن ٣٦ يوماً علمنا في نهايتها ، ان رجال الكتلة قد اتفقوا مع الفرنسيين على عقد معاهدة ، واننا سنخرج من السجن . وبالفعل فقد أخرجونا تدريجياً وكان الوقت ليلاً . وفي صباح اليوم الثاني ، كان الناس يتظاهرون ويهتفون بملء أصواتهم : « بدنا أبونا حسن بك » ، ولكني عملت على تهدئة الحال .

وبعد يومين أعيد أخي وسعدالله الى حلب ، فعقدنا اجتماعات وقررنا قبل كل شيء ، ان نتخذ مقراً للكتلة ، ففتحنا المقر ، وذهب سعدالله الى دمشق ، ولم يلبث ان تألف وفد ليذهب الى فرنسا ، ويعقد مع حكومتها معاهدة . ولم يكن بوسعي ان اعترض على ذلك ، ولكنني كنتُ على يقين ان الفرنسيين لا يستطيعون ان يعقدوا معاهدةً ما دام الانكليز في القدس وشرقي الاردن ، وما داموا يأملون ان يلحقوا سوريا بالعراق . وبينت فكرتي لبعض الاخوان ، وأخبرتهم انه يستحسن ان تجري المفاوضة في بيروت ،

لان ذهاب الوفد الى فرنسا سيؤثر في معنوية الناس، وان الاستقلال يؤخذ في بلادنا، ويمنح في بلاد المستعمر.

وأخيراً سافر الوفد، وكان مؤلفاً من السادة: هاشم الأتاسي وسعدالله الجابري وجميل مردم وفارس الخوري وادمون حمصي ونعيم انطاكي. وبقينا نرقب الأحوال الداخلية، خشية ان يعمل الفرنسيون على تعكير الجو، فتفشل تلك المساعي المبذولة لعقد المعاهدة.

وفي ذات يوم، علمنا ان الفرنسيين شكلوا من بعض الشبان المسيحيين المرتزقة، جمعية سموها باسم «الشارة البيضاء» غايتها إثارة فتن طائفية، فرحنا ننصح رؤساء الأحياء ان يكونوا يقظين. وفي صباح يوم الاحد في ٦ ايلول ١٩٣٦ علمنا ان جماعة الشارة البيضاء، تعرّضوا لفريق من الاسلام في سوق الأحد فاشتبك الفريقان في معركة حامية وقد طلب اخواننا ان ننجدهم، وفي الحال أسرع الدكتور الكيالي الى سوق الأحد مع فريق من الشباب، وتوجّه أخي الدكتور حسن بك الى جهة بانقوسا ليحول بين أهالي قارلق وغيرهم من الوصول الى الاحياء المسيحية، ولكن اهالي قارلق ارادوا ان يشقوا الطريق عنوةً، فوقف أخي الدكتور امامهم وقال لهم بلهجة صادقة جازمة: لا ادع احداً يمر من هنا إلا على جثتي.

هنالك سكن الغليان، ورجع الناس الى بيوتهم هادئين مطمئنين. ولما عرفنا المحرّضين على القيام بهذه الحركة، جمعناهم عند السادة المطارنة، واخبرناهم انه لا يصح أن يدبّ الشقاق بين المسيحيين والمسلمين، كي يقضي الفرنسيون مآربهم من وراء هذا الخلاف المصطنع، وينشروا الفساد والخصام، وتراق الدماء الزكية الطاهرة، فكان لكلامنا تأثيره العظيم في نفوسهم فساهموا في تهدئة الحالة أيضاً.

ولم تكن مثل هذه الحركات لتهدأ، حتى تثار حركة أخرى، تهدف الى قطع طريق التفاهم على الوفد الذي كان يفاوض في فرنسا.

وقد قامت مظاهرات تحت ستار المطالبة بحقوق عمال النسيج ، وكاد يتوسع الامر ، فاضطررت الى الاجتماع باولئك العمال ، وشرعت اقنعهم ان خلافاتهم في هذه الظروف الدقيقة تضرُّ بالوطن ، فوعدوني بان يلوذوا بالسكون.

ولم اكتفِ بذلك ، بل اجتمعت بارباب العمل ، وطلبت اليهم ان ينصفوا العمال ، وان يحققوا مطاليبهم العادلة ، فلمستُ منهم ما كنت اتوقعه من عطف على قضايا العمال .

وهكذا ماتت تلك الحركة أيضاً في مهدها .

*

ووقع حادث ثانٍ كانت له ضجة كبيرة . وخلاصة الأمر ، انني خرجتُ من بيتي على اثر مرضٍ أصبت به ولزمت بسببه سريري ثلاثة أيام . ولما وصلتُ الى قسطل الحجارين لشراء حاجة لي ، تجمهر حولي عدد كبير من اصحاب المحلات والمخازن وقالوا لي : ما هذا العمل يا جميل ؟ أتأمرون شبابكم ان يرشقوا النساء بالحبر وبماء الكذاب ويقولوا لهن امتنعن عن التبرج . وليس هذا فحسب ، بل انهم يضربون بعض الاشخاص لانهم لم يصلوا ، ثم يذهبون الى الخمارات ودور السينما ويغلقون ابوابها . ان عملاً كهذا لا تحمد عقباه . فقلت لهم لا علم لي بذلك . وذهبت الى باب الفرج لاتحقق الامر بنفسي ، فرأيت مخازن المشروبات الكحولية مقفلة ، وعند ابواب السينما رأيتُ جموعاً تمنع من الدخول . فدخلت الى مقهى « فرجو » وجلست في مكان يطل على الرصيف ، ويمكن الناس من رؤيتي وطلبت كأساً من اللبن . وبينما انا كذلك ، رأيتُ أمام محل (آ . ب . ث) بضعة شباب من أفراد الحرس الوطني ينظرون إليَّ ، فدعوتهم وأجلستهم الى جانبي ، وسألتهم عن سبب وجودهم في ذلك المكان ، فقالوا لي : لقد قيل لنا انك اعطيت الامر بان نمنع الناس عن المشروبات والسينما . فأكدت لهم أنني لم أفعل شيئاً من هذا ، وانني لم أعلم به إلا منذ قليل . ثم بينت لهم ان بعض عملاء الفرنسيين ، هم الذين دبروا هذه المؤامرة لاحداث الشغب في

حلب ، وليفسدوا على الوفد مساعيه ، لأن أصحاب دور السينما والحانات هم من المسيحيين ، فيقال عندئذٍ كيف تمنح فرنسا للسوريين الاستقلال ، والاكثرية فيها تعتدي على الأقلية .

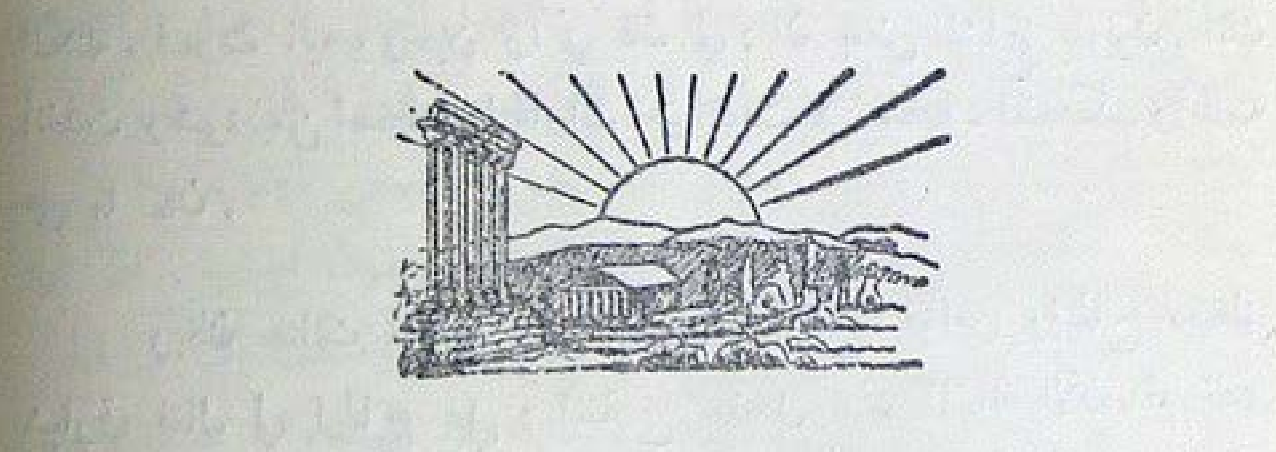
وفي ذلك الوقت ، حدث خلاف في جسر الشغور ، فرأى اخواننا في الكتلة الوطنية ، ان يعملوا على فض هذا الخلاف ، فاقترح الدكتور عبدالرحمن الكيالي ، أن أتولى هذا الأمر ، فتوجهتُ الى جسر الشغور ، ونزلت ضيفاً في منزل السيد زكي النجاري . وعند المساء جمعتُ الفريقين المتخاصمين وصالحتهما واخبرتهما ان الوضع الراهن لا يجيز لنا احداث المشاكل .

وفي اليوم الثاني تلقيت برقية من ابن عمي حسني ، جاء فيها ان أخي الدكتور يريد حضوري في الحال . فانشغل بالي كثيراً ، وتوجهت الى حلب . ولما دخلت الى بيت أخي الدكتور حسن ، أخبروني انه في مكتب الكتلة . فسرت اليه ، وحين رآني قال لي : ان بعض المشايخ يقولون : انك أخذت رشوة من اصحاب الخمارات حتى عملت على فتحها . فضحكت واطلعته على ما كان .

وكان هنالك الحاج علي سيرجية والحاج قواص والحاج مصطفى شبارق فقال لي الحاج علي : استرح سنحل هذه المسألة الآن . ثم نادى الخادم وقال له : اذهب وقل لشيخ تراب صاحب مطحنة باب النصر ان يتفضل الى هنا . فلما جاء انفرد به الحاج علي وقال له : كان الدكتور حسن بك قد سمع ما حدث وقد علمنا انك انت الشاهد على ما جرى فحدثنا بالحقيقة فقال الشيخ تراب : ان الشيخ احمد الصابوني والشيخ مصطفى الزرقا والشيخ معروف الدواليبي قد جاءوا اليه وقالوا له اذا سألك احد عن هذه القضية فقل له ان بائع المشروبات في جادة الخندق ، قد أتاني وطلب مني جليداً ، فقلت له : لماذا تريد الجليد ، والخمارات مقفلة ؟ فقال : لقد اعطينا لجميل بك مائتي ليرة عثمانية ذهباً فلم يعد يتعرض لنا

أحد ففتحنا الخمارات .

وفي اثناء ذلك ، توافد على المكتب جمهورٌ غفير من الشباب ورجال الأحياء ، وطفقوا يصيحون : لا نقبل ان توجه هذه التهم الى جميل ، نريد محاكمة المتآمرين . ولكنني مع اخواني اعضاء الكتلة الوطنية ، عملنا على تهدئة الحالة ، حرصاً منا على مصلحة الوطن السوري المفدّى .



عودة الوفد السوري من فرنسا

قبيل عودة الوفد بيومين جاءني حسين خربوطلي ومصطفى ضعضع وبعض الشباب وقالوا لي: علينا ان نهيء للوفد استقبالاً حافلاً فعمدتُ الى تنظيم الحرس الوطني ورجال الأحياء. وقبل وصول الوفد بساعات قليلة بقيت الليل كله أهيء الموكب تهيئة عسكرية.

وفي الوقت المعين لوصول الوفد، اصطف الحرسُ والشباب ورجال الأحياء، من باب المحطة الى حي العزيزية. وذهب المندوب ورؤساء الحكومة وأعيان المدينة، لاستقبال القادمين مع رجال الكتلة.

وعندما وصل الوفد، حيّا المستقبلين، وسار مشياً على الأقدام، من رصيف المحطة إلى فندق بارون. وكان ألوف وألوف من الناس، مزدحمين على جانبي الطريق. وكانت النساء والصبايا الواقفات على شرفات المنازل وأسطحتها يزغردنَ ويلقين على الوفد الأزهار والرياحين. وكانت هتافات التأييد تشقُّ عنان السماء.

ولعل حلب لم تشاهد في تاريخها الطويل الحافل بالأمجاد، يوماً كهذا اليوم الأغر الميمون.

ووصل الوفد الى فندق بارون، وصعد الى شرفته الرحبة، وبدأ العرضُ فسارت أولاً فرقة موسيقا الحرس الوطني، ثم سار الحرس، وتلته مواكبُ رجال الأحياء. فكان عرضاً بديعاً مدهشاً، دلَّ دلالةً واضحة على تعلق الأمة برجالها الأحرار وقادتها الأوفياء المخلصين.

وتلا ذلك العرض، كثير من الاحتفالات الشائقة والمآدب السخية الفاخرة، ثم توجه أعضاء الوفد الى دمشق. ولم يلبث ان تبعه اعضاء

الكتلة للتداول في شؤون الاتفاق . وكنتُ أولَ من قال إنَّ الفرنسيين لن يستطيعوا تصديق المعاهدة ، فكان الكلُّ يقولون لي : انت متشائم دائماً .

وعلى أثر ذلك تقرر إجراء انتخابات نيابية ليقرَّ النواب المعاهدة . ولما كنتُ متشائماً ومستبعداً تصديق المعاهـدة ، اعتزمت ان لا ارشح نفسي للنيابة . وعندما علم اخواني بذلك ، زارني سعدالله وألحَّ عليَّ ان ارشح نفسي للنيابة فقلت له : لا استطيع ان اشترك في امر لا أراه مفيداً . ولما رآني مصراً على فكرتي ، خشي اخواني ان تنتهي مدة الترشيح ، فقدموا ترشيحاً باسمي بدون علمي .

وفُتح المجلس النيابي في الموعد المقرر . فسرنا الى دمشق ، وعقدنا اجتماعات عديدة ، تداولنا فيها في شؤون رئاسة المجلس ومكتبه ، فرأينا ان يكون فارس بك الخوري رئيساً للمجلس .

أما رئاسة الجمهورية ، فكان سعدالله يرغب في ان تكون من حق هاشم بك الأتاسي . اما انا ، فلم أرَ رأيه ، بل كنتُ أميل الى ان يكون جميل مردم هو الرئيس . ولكن سعدالله اقنعني بوجوب انتخاب هاشم بك الأتاسي ، فأجبته الى رأيه . وهكذا ، فقد انتخب هاشم بك الأتاسي رئيساً للجمهورية .

وخطر لي بعد ذلك ، أن استقيل من النيابة . وبالفعل فقد قدمت الى رئيس المجلس استدعاء استقالتي . وكان لهذه الاستقالة ضجة كبرى . وحين كان يسألني الناس عن سبب استقالتي كنت اجيبهم : لقد عُقدت المعاهدة وانتهى الامر . وبما انني لا اطمع بوزارة او سواها من المناصب ، فقد رأيت ان اتجنب السياسة ، والتفت الى اعمالي الزراعية .

ولكن اخواني الوطنيين طلبوا الى اخي الدكتور ان يقنعني بعدم الاستقالة ، فقال لي : ان استقالتك لا تمتُّ الى المنطق بصلة ، فعليك ان تعدلَ عنها . وبقي يصرُّ عليَّ اصراراً عظيماً ، حتى سايرته وعدلت عن ذلك .

موكب وداع السادة رجال الوفد السوري اثناء مرورهم بحلب في طريقهم الى باريس
فوتو : ليوبولد   وهم يستمعون لقصيدة السيد رشيد الرشتم   ناصح العقيد

اعضاء الوفد الرسمي مع رجال الكتلة الوطنية ووجهاء حلب وهم يستعرضون فرق الكشافة الحديدية والوفود
من شرفة فندق بارون ويرى السيد سعد الله الجابري يؤدي التحية الوطنية لفرقة الحرس
تصوير : ناصح العقيد



الوفد السوري الامين حين عاد من فرنسا في ايلول ١٩٣٦
ويبدو في الصف الاول من الشمال :
هاشم بك الاتاسي وفارس بك الخوري والامير مصطفى الشهابي وادمون بك الحمصي



عودة الوفد السوري من باريس في ايلول ١٩٣٦

ووضعت المعاهدة للدراسة، ثم طرحت على التصويت، فوافق عليها الجميع ورفعوا ايديهم مؤيدين. اما انا، فلم ارفع يدي لا سلباً ولا إيجاباً، وذلك يعني انني استنكفت عن التصويت.

في ذلك الوقت، صدر عفو عن المحكومين الفارّين: الدكتور عبدالرحمن الشهبندر واحسان الجابري والامير شكيب ارسلان وسلطان باشا الاطرش ونبيه العظمة وغيرهم.

وكان الجميع يحسبون للدكتور الشهبندر حساباً عظيماً، ولهذا فقد دعوه الى الاشتراك في الوزارة فرفض، ثم سافر الى مصر، فأشيع عنه انه يؤيد السياسة الانكليزية. وعند عودته من مصر، هيأ له اكثر الدمشقيين استقبالاً حافلاً، فاستاءت الحكومة من ذلك، وبذلت أقصى ما تستطيع من جهد لتحول دون هذا الاستقبال. ففكرت الحكومة ان تمنعه بالقوة. ولما سُئلتُ عن رأيي بهذا المنع، قلت ان المنع سيزيد الشهبندر قوة. ولكن رئيس الجمهورية لم يقبل بذلك، وأصرّ على وجوب المنع، وذهبت انا الى بلودان حيث كنت مصطافاً مع عائلتي.

وفي الحقيقة، فقد حالت الحكومة دون ما كان يراد للشهبندر من استقبال عظيم، وأتوا به الى بلودان. ومما يدعو الى الغرابة، أن الرئيس الجليل هاشم الاتاسي، الذي أقرّ المنع، كان اول من ارسل امين القصر الجمهوري للسلام عليه.

ويتضح من ذلك، أن فخامة الرئيس، لم يكن على تفاهم تام مع الوزارة، وكان يقصد اضعافها.

وفي الوقت نفسه كانت فرنسا تناوىء رجال الكتلة الوطنية وتعمل على معاكستهم. وكانت الكتلة الوطنية تبذل كلّ ما في وسعها لتحقق للبلاد السورية الاستقلال المنشود.

وبينما كانت سوريا مسرحاً لهـــذه الحركات الوطنية، نشبت ثورة فلسطين بقيادة فوزي القاوقجي. وكانت سوريا تلعب دوراً مهماً في مساعدة

الثوار وتغذيتهم بالعتاد والذخائر .

وفي معترك ذلك الجهاد الوطني المقدس زارني شفيق بك الماضي احد اعضاء اللجنة العليا لمجاهدي فلسطين وقدّم لي مبلغاً كبيراً من المال لشراء اسلحة لثوار فلسطين . ولكنني رفضت تسلّم المال وعرضت عليه ان يودع ذلك المبلغ لدى السيد عبدالوهاب ميسّر المعروف بفضله ونبله واخلاصه ووطنيته العالية ، على ان اتولى انا نقل الاسلحة المشتراة .

وفي الحقيقة ، فان السيد عبدالوهاب ميسّر مشهور بالدقة والذكاء في تسيير الامور ، وكان يعمل بصمت شديد يبعد عنه الشبهة والمراقبة .

وحين رآني السيد الماضي مصراً على ذلك ، قبل بما عرضته عليه . وبعد ايام قلائل دخلتُ داري فرأيت فيها اكداساً من الحقائب المملوءة بالأسلحة وبجانبها وقف اناس يحرسونها . فاستقبلتني زوجتي مصفرّة الوجه وأومأت إلى تلك الحقائب وقالت ما هذا ؟ فأدركت حينئذٍ عظم المسؤولية الملقاة على عاتقي ، ورحت أفكر في كيفية نقلها . وساعدتني زوجتي على ذلك فنقلنا معاً تلك الاسلحة الى دمشق ، حيث رأينا عزة دروزة احد اعضاء اللجنة العليا لمجاهدي فلسطين ، فعرضت عليه القضية فذهبنا الى دار فخري بك البارودي ، فلحق بي أخوه فنقلنا الأسلحة الى فلسطين .

★

ومرّ زمن على تصديق المعاهدة من قبل المجلس النيابي السوري ، ولكنّ الفرنسيين كانوا يماطلون في تصديقها . وأخيراً اقترح جميل مردم ان يسافر الى فرنسا بالاتفاق مع المفوض السامي ليفاوض الحكومة الفرنسية ويرى حلاً ملائماً لهذه القضية ، فقامت قيامة اعضاء مجلس الكتلة ، وتنادوا لاجتماع يعقد في مصيف جميل مردم ، في دمر «قدسيا» . وعقدت الجلسة ، ولكنّ المجتمعين لم يوافقوا على سفر جميل مردم الى فرنسا ، بل رأوا على حدّ تعبيرهم ، ان « يقطعوا الحبل » أي حبل المفاوضة . ولكنّ جميلاً أصرّ على السفر ، ورأى ان العودة إلى الخصام ليس من مصلحة الامة . وكنتُ أراقب هذا النقاش الحاد وانا صامت ، فالتفت إليّ جميل بك وقال :

لمَ نراكَ صامتـــاً ؟ وما هو رأيك ؟ . فقلتُ : الاعتراض على السفر غير صحيح ، فعلى رجال الوفد ان يوالوا سعيهم في سبيل تصديق المعاهدة ، لأنهم هم المسؤولون عنها . أما ان نتحمل نحن هذه المسؤولية ، فان ذلك من فساد الرأي .

وعندئذٍ تغيَّر الجو ، ومال الحاضرون الى التأييد . فسافر جميل مردم الى فرنسا . وفي أثناء غيابه انتشرت عنه اشاعات متفرقة ومتناقضة .

وعندما رجع ، فهمنا ان الفرنسيين يريدون ان يضعوا في اللاذقيـة قوةً عسكرية ، ولم يكن ذلك موجوداً في نصوص المعاهدة .

وفي ذات يوم قال لي أخي ، انه سمع من رشدي الكيخيا ، ان الرئيس الجليل ، يُدخل في روع بعض النواب ، أن بعضاً من رجال الكتلة ، غير مخلصين كل الاخلاص للقضية الوطنية ، فلم اكترث لذلك ، وقلت في نفسي ، انها شائعة مغرضة يروجها بعض النفعيين .

ولكن هذه الشائعة اشتدت انتشاراً . وذهبتُ في احد الايام لزيارة سعدالله ، وكان وزيراً للداخلية ، وكان عنده عادل العظمة . ولما رآني سعدالله ، التفت الى عادل وقال له : هـذا جميل قد فهمه اكثر مما فهمته ، فعلمت حالاً ما يقصد ، ولكنني سألت سعدالله كأنني اجهل الأمر : ما الخبر ؟ فقال سعدالله : ان الرئيس يحضر النواب ويقول لهم عنا اشياء اعتقد انها تضرُّ بنا وبالمصلحة العامة . ولم يكتفِ بذلك ، بل أوقف المراسيم ولم يصدقها ، فقلت له : لا تقلق بالك ، فأنا ذاهب اليه لأرى ما يكون .

وذهبت من فوري الى القصر ، ودخلت على الرئيس وقلت له : بلغني انك تحضر النواب ، وتحدثهم عن جميل مردم وعن سعدالله أحاديث تسيء اليهما والى الكتلة الوطنية ، فاذا كنت على حق ، فاجمع اعضاء الكتلة وبيّن الامر أمامهم ، فاذا ثبت عليهما ما تقول اخرجناهما من الكتلة ، ومنعنا هذه البلبلة ، وقضينا على الشائعات . فقال لي : انا لست رئيساً للكتلة ، ولكنني رئيس للجمهورية .

فقلت له: من الطبيعي ان تتنصل من رئاسة الكتلة وتتمسك برئاسة الجمهورية، ولكن أحب ان تذكر انا نحن الذين انتخبناك رئيساً للجمهورية، ثم قلت له: لماذا احتفظت بالمراسيم ولم تصدق عليها؟. فانتحل بعض الاعذار ووعد بتصديقها في اقرب وقت.

وفي مساء ذلك اليوم قال لي سعدالله: ماذا صنعت حتى أسرع فخامة الرئيس بتصديق المراسيم؟ فأخبرته بما دار بيننا من حديث، فسرَّ لذلك وشكر لي صنيعي.

وفي ذات يوم، كنت في بلودان، فأرسل فاخر بك الجابري يطلب إليَّ أن اقابله. ولما ذهبتُ اليه قال لي: الرئيس وسعدالله مختلفان. وقد فهمت ان الرئيس حاقد عليه، فعليك ان تتوجه إلى دمشق وأن تتحقق الأمر بنفسك، وتعمل على اعادة المياه الى مجاريها. فأسرعتُ الى دمشق، ودخلت الفندق، فرأيت احسان بك الجابري وميخائيل اليان مضطربين، فسألتهما عن جلية الأمر فأخبراني ان الوزارة مجتمعة في القصر، وأن الرئيس يريد أن يُدخل في الوزارة لطفي الحفار وفائز الخوري، غير أن سعدالله رفض ذلك، فيجيبه الرئيس: «نحن لسنا تحت أمرك، وسيكون ما أريد».

وفي الحال، هرعت الى غرفة الهاتف، وطلبت القصر الجمهوري، فأجابني نجيب الأرمنازي أمين القصر، فأخبرته انني اود ان اكلم فخامة الرئيس فقال لي: هذا غير ممكن الآن، لأنه مجتمع بالوزارة، فقلت له: بيِّن للرئيس رغبتي، وانني انتظر الجواب سواء كان سلباً او ايجاباً. ولبثتُ أنتظر نحو ربع ساعة، دون ان اتلقى منه جواباً، فعدت وطلبت القصر وقلت للأرمنازي: حلب منتظرة مني الجواب. فعليك ان تبلغ الرئيس ان ارادة سعدالله لا ترد.

ولم يسع الارمنازي، إلا ان يقوم بهذه الرسالة، التي كان لها تأثيرها العظيم في نفس الرئيس، فراح يلاطف سعد الله. هنالك قبل سعدالله بالأمر الواقع.

قضية لواء الاسكندرونة

ومرّت ايام ظهرت في خلالها قضية الاسكندرونة الى حيز الوجود، وكانت امور الدولة مضطربة، ورجال الحكم في قلق.

وقد اتصل بنا، ان اعطاء لواء الاسكندرونة للاتراك هي قضية دولية. وكان الفرنسيون يلعبون على الحبلين، فمن جهة كانوا يجرون الترتيبات لتسليم ذلك اللواء الى الاتراك، ومن جهة ثانية، كانوا يتظاهرون بأنهم يعارضون في تسليم اللواء المذكور. ولا عجب، فهذا شأن المنتدبين والمستعمرين في كل زمان ومكان.

وفي ذات يوم، كنت مع الأستاذ السرميني عند الدكتور عبدالرحمن الكيالي، فدخل علينا الآذن، واعلمنا ان الطلاب قد اصطدموا برجال الشرطة، وانهم ذاهبون الى دار الحكومة. فتكدر الدكتور لذلك، فقلت له: أريد ان اردّ الطلاب المتظاهرين، وان اقنعهم بلزوم السكينة والهدوء فقال: نعم.

فقمتُ في الحال، وتبعني الأستاذ السرميني، فرأينا المتظاهرين في صخب وهياج وهم يصيحون بملء اصواتهم: «بدنا اسكندرونة. اسكندرونة للعرب».

وكان على رأس المتظاهرين السيد علي بوظو، فقلت له: الى اين انتم ذاهبون؟ فأجابني إلى دار الحكومة، للاحتجاج على تسليم لوائنا العربي الحبيب الى الأتراك. فقلت له ولمن معه: اعلموا يا ابنائي، ان كنتم تعملون بدافع من وطنيتكم، فلا حاجة إلى التظاهر لأن الفرنسيين سيستفيدون من هذه البلبلة استفادة تعود على وطنكم بالأذى. ونحن لا نشك قط باخلاصكم وصدق وطنيتكم، وان حكومتكم المنبثقة من مشيئة الشعب، ستبذل كل ما

تستطيع من جهد وتضحيات في سبيل هذه القضية الحيوية المهمة . اما اذا كنتم مدفوعين من الأجنبي فلا أدعكم تمرون من هنا إلا على جثتي .

فقال علي بوظو : انا نريد ان نحتج على تسليم اللواء الى الأتراك .
فقلت له : انكم على حق ، فليأتِ معي ثلاثة منكم ، ونحن نقوم بما علينا من الواجب الوطني . فهتف المتظاهرون كلهم : « يعيش جميل ابراهيم باشا » وجاء معي ثلاثة من المتظاهرين فقابلنا الامين العام لوزارة الداخلية وشكونا اليه الامر .

وكانت قد تألفت لجان للاشراف على الاستفتاء الذي تقرر ان يجري في الاسكندرونة وانطاكية وقرقخان والريحانيـة ، ولبث الدعاية للعرب ، فطلب اليّ ان اتوجه الى تلك الانحاء لاراقب العمل عن كثب ، ولأقدم ما أراه مناسباً من التعليمات .

فذهبت اولاً الى الريحانية فرأيت إقبال اخواننا العرب شديداً . ثم توجهت الى انطاكية ، فرأيت على رأس لجنتنا هناك الاستاذ معروف الدواليبي ، فسألت عن الحالة ففهمت ، ان الامر على غير ما نروم . وتوجهت بعد ذلك الى قرقخان ، فرأيت الارمن هناك قد قاموا بواجبهم على أحسن وجـه ، ولكنهم كانوا يشكون بسلامة الاستفتاء ويؤكدون ان الدولة المنتدبة ستلجأ الى التزوير .

وتابعت سيري من قرقخان الى الاسكندرونة ، حيث التقيت بصلاح الدين باقي ، فأخبرني ان الامر في الاسكندرونة لا يدعو الى الرضى والاطمئنان . ثم رحت اسأل في اوساط الحكومة ، فعلمت ان الاتراك مجتمعون عنـد الحدود بالقرب من الاسكندرونة وعلى رأسهم « شكري قاية » فأحببت ان استقصي الامر بنفسي ، لأن شكري المذكور كان رفيقي في المدرسة ، وكنا في صف واحد ، وكانت بيننا مودة قويت حين ضمتنا بعد ذلك جمعية الاتحاد والترقي ، فتوجهت الى الحدود ، وطلبت مقابلته فاستقبلني في الحال ورحب بي ، وسألني عن سبب مجيئي فقلت له : لقد أتيت لزيارة الاسكندرونة ، ولما

علمتُ انك هنا ، أحببت ان اراك لاني في شوق عظيم اليك . ففرح بزيارتي ورحنا نتحدث عن الاحوال السياسية .

وكان من الطبيعي ان ينتقل بنا الحديث الى قضية الاسكندرونة ، فقلت له : انكم ستخسرون الاستفتاء على كل حال ، فلمَ تريدون ان تجددوا العداوة بيننا وبينكم ، فقال : نحن لا نكترث بالاستفتاء ، ومهما كانت النتيجة فسنكون بعد ثلاثة ايام في انطاكية .

وبعد ان بقيت عنده ساعة استعدنا فيها ذكريات الماضي ، عدت الى حلب ، ومنها توجهت الى دمشق ، حيث قابلت سعدالله الجابري وجميل مردم بك وحدثتهما بما شاهدته ولمسته عن كثب ، وبما دار بيني وبين شكري قابة من حديث ، فلم يهتما بكلامي . فقلت لهما : ستتضح لكما الحقيقة قريباً .

وكان الفرنسيون يخفون عنا حقيقة الامر ، ويعملون على خداعنا ، وعلى مسايرة الاتراك ومجاراتهم ، والرضى عن تزييف التصويت ليقدموا لهم ذلك اللواء العربي لقمة سائغة .

ومرّ على ذلك ثلاثة أيام ، وإذا بسعدالله الجابري وجميل مردم يرسلان في طلبي ويقولان لي ، ان اتوجه الى الاسكندرونة ، وان اجدّد المساعي ، عسى ان يُكتب لنا النجاح .

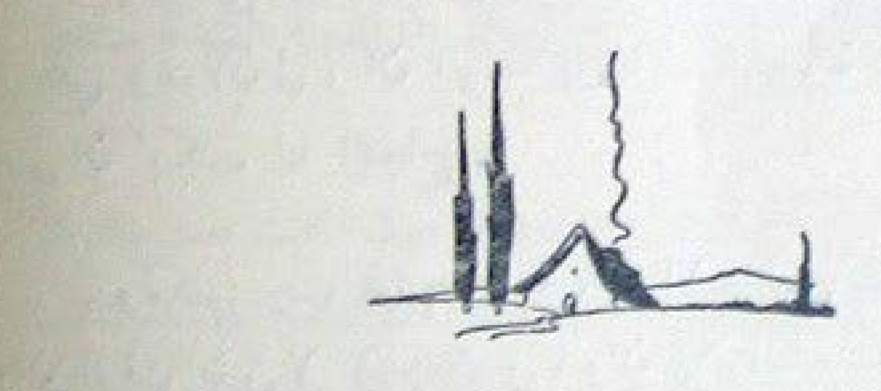
ولكنني بينت لهما بصراحة ، ان الامر ليس على ما يظنان من السهولة ، وان الوقت ضيق لا يتسع للعمل ، وان الاتراك سيكونون غداً او بعد غد في انطاكية . غير انهما اصرّا على ان اهيء الاسباب التي تكفل لنا النجاح ، فقلت لهما حسناً ، ولكنني لم اغادر دمشق بل بقيت في الفندق ، وقلت لصاحبه إذا سأل عني أحد فقل له انني سافرت الى حلب .

وفي ظهر اليوم الثاني ، طالعت في احدى الجرائد خبراً مفاده : ان الاتراك قد دخلوا مدينة الاسكندرونة وانهم متوجهون الى انطاكية .

وعندما جاء سعدالله ليتناول طعام الغداء في الفندق ، رآني فقال لي : ألم تذهب ؟ فأجبته : لقد كنت على يقين تام بأنني لن استطيع ان افعل شيئاً، وقد اظهرتُ لكم حقيقة قولي فلم تريدوا ان تصدقوني .

فنظر إليّ سعدالله وقال بلهجة مريرة خرجت من اعماق قلبه : حقاً لقد كنتَ على صواب .

ولقد تألم السوريون جميعاً ، كما تألم العرب كلهم لاعتداء الاتراك على ذلك الجزء الغالي من بلادنا السورية . ولم يعد في امكاننا ان نصنع شيئاً ، لأن المنتدب مثّل دور الثعلب ، فخاتل وراوغ وحرمنا جزءاً عربياً غنياً بموارده الطبيعية ، وشرّد عشرات الالوف من سكانه العرب المفاخرين بعروبتهم ، والمباهين بقوميتهم العربية الصادقة .



بعض أحداث عام ١٩٣٩

لم يكتفِ الفرنسيون بمنح لواء الاسكندرونة للاتراك، بل طلبوا من الحكومة السورية، أن تقرّ باستقلال اللاذقية وجبل الدروز.

ولكنَّ الحكومة رفضت ذلك، وأبت مجاراة المنتدب، فوقعت بين الفريقين الواقعة، واضطرت الوزارة الى الاستقالة.

وجاءني في صباح أحد الأيام نصوح بك البخاري، وكان رفيقي في المدرسة، وذا سمعة حسنة. وبعد أن رحبتُ به، سألته عن سبب زيارته، فقال لي: لقد كلفتُ بتشكيل الوزارة، وجئت أطلب موافقتك للاشتراك معي في تحمّل هذا العبء، فقلت له: انه لمن دواعي فخري أن أعمل معك، ولكن أريد أن أقول لك، إن الوزارة التي يخرج منها سعدالله، لا يدخلها جميل أبداً. ولو شئتُ لكنت أحد أعضاء الوزارة السابقة. ولهذا فاني أعتذر، اذا لم أجبك الى طلبك.

ولما ألحَّ عليَّ قلت له: انك تريدني أن أدخل الوزارة لأضمن لها ثقة المجلس، وأنا أقول لك انك اذا رفضتَ ما يطلبه الفرنسيون، فان الثقة مضمونة لك.

ولما لم يرَ فائدةً من بقائه خرج. وهنا خرجت زوجتي، وكانت تسمع بعضَ حديثنا من حيث لم يرها نصوح بك، وقالت لي وعلائم الغضب بادية عليها: هل قبلتَ الاشتراك في الوزارة؟ فقلت لها: ولماذا؟ فقالت لي: اذا قبلتَ التعاون مع الفرنسيين، فاعلم أنني سأتركك الآن وأعود الى بيت أبي، لأنني لم أتزوجك الا لوطنيتك الخالصة وإبائك الصادق، واني لأربأ بكَ أن تلوّث ماضيكَ المجيد، وأن تسايرَ الفرنسيين. فابتسمتُ وأطلعتها على جلية الأمر، ففرحت وشكرت لي صنيعي.

وفي هذه اللحظة ، دخل سعدالله وسألني عن سبب زيارة نصوح البخاري ، فحدثته بما كان ، فقال لي : ولم رفضتَ الوزارة ؟ فقلت له : فليبحث عن سواي ، لانني لا أحب أن أحرق نفسي . فقال لي : هلمَّ الى الاجتماع الذي سيعقد عندفارس بك الخوري . فذهبنا ، وكان هناك ميخائيل بك اليان وجميل بك مردم ولطفي بك الحفار وعفيف الصلح وفائزبك الخوري وغيرهم . فقال لي سعدالله : حدثهم عما دار بينك وبين نصوح البخاري فأعدت عليهم الحديث ، فاستحسنوا جوابي لنصوح بك ، وقالوا لي : اذهب اليه وقل له : انني حدثتُ اخواني بما كان بيننا ، فرأيتهم كلهم من رأيي وهم سيمنحونك الثقة اذا وعدتَ برفض طلب الفرنسيين ، فذهبتُ الى نصوح بك وأطلعته على ما كان .

ولكن قبل أن يجتمع المجلس ، اعتذر نصوح البخاري عن تشكيل الوزارة ، فكلف الفرنسيون لطفي الحفار بتأليفها ، وأوقفوا اجتماعات المجلس . وقد استغربت كثيراً كيف قبل لطفي الحفار بذلك .

وبلغنا أن الرئيس هاشم الاتاسي يرغب في الاستقالة من رئاسة الجمهورية ، فتذاكرنا في هذا الشأن ، فطلب إليَّ الاخوان ان اذهب اليه ، وان أبيّن له ، ان استقالته ليست في صالحنا ، ولا هي ملائمة للمصلحة العامة ، فعليه ان يبقى على كرسي الرئاسة ، وأن يصرّ على ما يريد ، وان يجمع المجلس . فذهبتُ وبلغته ذلك ، فقال لي : لستُ راغباً في تلويث سمعتي ، وأبى إلا ان يقدم استقالته . وقد ضعضعت هذه الاستقالة القوى ، فانسحب لطفي بك من الميدان .

وفي اليوم الثاني ، زارني الاستاذ جورج فارس صاحب جريدة « له زيكو » ومعناها « الصدى » ، وكان صديقي الصادق ، وقال لي : ان المندوب الكونت أوستروك يرغب في مقابلتك ، فعينتُ له موعداً حضر فيه مع ترجمانه ، فقال لي المندوب : جئتُ لأتفاهمَ معك بشأن دخول الوزارة ، فقلت له : يجب ان نبحث القضية من جميع وجوهها ، وأن يكون

التفاهم بيننا تاماً، فان طلبكم أن أدخل الوزارة، سيبقي الخلاف بيننا على ما كان عليه. قال: وما قصدك من ذلك؟ فأجبته: انكم تريدونني أن أشترك في الوزارة لتستفيدوا من شعبيتي. وقد دخل الوزارة قبلي حقي العظم وصبحي بركات ثم الشيخ تاج، فهل تستطيع أن تبين لي يا حضرة المندوب، ماذا استفدتم منهم خلال المدة الطويلة التي قضوها في الحكم؟ فقد كان لكل واحد منهم شعبية أكثر مما لي بكثير. وعلاوة على ذلك، فاني أرى أن الأحوال الدولية في اضطراب وغليان، وليس ببعيد أن تنشب حرب عامة، ولا تنسَ أن الانكليز مقيمون في فلسطين، وهم لا يرتاحون الى ان تعقدوا معنا معاهدة، فالأوفق إذاً، أن يتم التفاهم بيننا على هذا الأساس، وأن تقولوا لنا بصراحة وجلاء: لا نستطيع تصديق المعاهدة. اما اذا لم تنشب الحرب، واذا تحسنت الأوضاع الدولية نفذتم المعاهدة. والآن فانه يستحسن أن نبقى في الحكم نمارس عملنا السياسي وتمارسون أنتم عملكم الاداري.

أما طلبكم باستقلال اللاذقية وجبل الدروز، فلا يأتي بسوى الاختلاف، ولا سيما اذا وقعت الحرب، فانا بدلاً من ان نكون عوناً لكم، نكون ناقمين عليكم.

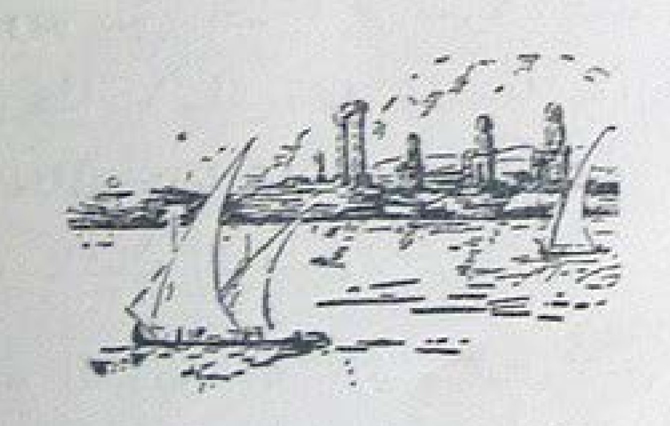
غير أن المندوب بقيَ مصرّاً على فكرته، فقلت له: لا سبيل الى التفاهم بيننا إلاّ على هذا الأساس، فهل تعلم ماذا كان يقوله الناس عن جميل مردم وعن سعدالله عندما عملا على مجاراتكم؟ لقد كانوا يقولون ان سعدالله وجميل مردم يماشيان الفرنسيين.

وعندما خرج المندوب سأله جورج فارس عن نتيجة المقابلة، فقال: لم أفهم شيئاً سوى المدح الذي كاله جميل ابراهيم باشا لسعدالله الجابري ولجميل مردم. فدخل عليَّ جورج فارس وأخبرني بما قاله له المندوب، فابتسمتُ وبينت له الحقيقة، فقال: حقاً ان التراجمة يسيئون التعبير، ولا يبينون الحقائق.

وكانت الشائعات بنشوب الحرب تقوى وتشتدّ، فرأينا أن لا نترك للفرنسيين مجالاً يستطيعون أن يستثمروا فيه ركودَ الشعب وهدوءه، فعقدنا اجتماعاتٍ في رويسات صوفر، تباحثنا فيها كثيراً، فأجمعَ رأينا على ان يعود كلٌّ منّا الى بلده، وأن يحرّض الناس على العمل.

وبقيت في رويسات صوفر يومين، ثم عدتُ وشرعت بالعمل. وفي ذات يوم وصلني كتاب من الاستاذ معروف الدواليبي، الذي كان يتلقى دروسه العالية في فرنسا، يقول لي فيه: ان الحرب واقعة لا محالة، وان فرنسا في ضعف وقلق، ولا بدّ ان يتغلبَ الالمان على الفرنسيين، الذين لن يتمكنوا من الصمود إلاّ قليلاً.

فأردتُ ان اجيبه برسالةٍ استوضحه فيها عن هذه الناحية. وخشية ان يُلقى القبض عليَّ ويعثر معي على الرسالة، وضعتُ كتاب معروف الدواليبي في علبة سكاري لأتذكره، لانني كنت في غمرةٍ من الاشغال والاعمال.



الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩

كنتُ في اليوم الثاني عند احسان بك الجابري ، نستمع الى المذياع ، وما كان أشد دهشتنا عندما أذاع اعلان الحرب ، فالتفت اليّ احسان بك وقال لي : كن على استعداد ، لأننا سنتوقف . فعدتُ الى بيتي . وعند بزوغ الشمس ، دخل عليّ بعض رجال الشرطة ليأخذوني الى دائرة الامن العام . وكنت اذا ألقي القبض عليّ ، اغيّر الثوب « الطقم » الذي كنت ارتديه ، خشية ان يكون في ثوبي شيء ممنوع .

ولقد طلبتُ من رفيقتي ، ان تأتيني ببضع علب السجاير ، فأتتني بها ووضعتها على الطاولة التي كانت عليها العلبة المتضمنة رسالة الدواليبي ، وبدون ان انتبه اخذت علب السكاير كلها ، وفي جملتها تلك العلبة . وعندما وصلنا الى ساحة باب الفرج ، اردت ان ادخن سيكارة ، فأخذت من جيبي علبةً وفتحتها ، فرأيت رسالة الدواليبي ، وبسرعة فائقة أرجعتها الى مكانها ، ولما وصلنا الى دائرة الامن العام ، أدخلوني الى غرفة الكتّاب ، ولم يكن فيها غير موظف واحد . وكان بالي منشغلاً ، ولم يكن في مقدوري ان امزق الرسالة .

وبينما كنت على هذه الحال ، اذ ادخلوا ميخائيل اليان ، فأخذونا معاً ووضعونا مع احد جواسيسهم المدعو (س ـ د) بحجة انه موقوف مثلنا ، وكان هذا الرجل يتظاهر بأنه يفكر ، وكان واضعاً رأسه بين كفيه ، كأنه غارق في تأمل عميق . ورأيت ان انتهز هذه الفرصة ، فأخذت الرسالة ومزقتها قطعاً عديدة ، ورحت ابتلع قطعة بعد اخرى ، الى ان تعذر عليّ البلع ، فنظر اليّ ميخائيل نظرة فهمت منها انه يريد ان اعطيه شيئاً من الرسالة فأعطيته القسم الاكبر ، فوضعه في فمه ، ولكنه لم يتمكن من بلعه فلفظه في الزاوية القريبة منا ، وكان في تلك الزاوية ثقب ، فقمت وأدخلته فيه دون ان ينتبه الجاسوس الى عملنا .

ثم ما لبثوا ان اخرجونا نحن الثلاثة ، ووضعونا في شاحنة «كميون» وجاءوا بأحد القسس ، وكان المانياً ، فأركبوه معنا ، فقلت لضابط كان يعمل على محافظتنا ، اذا كنتم تريدون اعدامنا ، فلمَ جئتم الى رفيقي هـذا - واشرت الى ميخائيل اليان - بكاهن يلقنه امور دينه ، ولم تأتوا اليَّ بشيخ يلقنني امور ديني ؟ فصاح ميخائيل : قاتلك الله ، انك لا تكفُّ عن مزاحك حتى في احرج الاوقات واصعب المواقف ، ففهم الضابط ما دار بيننا من حديث فضحك وضحكنا .

وبعد قليل ، وصلنا الى الثكنة العسكرية ، فوضعونا في مكان كان مستودعاً للذخيرة في الحرب العامة الأولى ، أيام كنتُ رئيساً للميرة . ثم جاءوا بفاخر الجابري ووضعوه معنا في ذلك المكان ، الذي يشتمل على عدد من الغرف ، منها غرفة للسمن ، وغرفة للسكر ، ثم خصصوا لنا غرفةً صغيرة وضعنا فيها فراشنا وجلسنا عليها ، ولم يكن ينير تلك الغرفة غيرُ كوةٍ صغيرة في سقفها . ثم أتوا بفنانات المانيات ، وبفهمي الحفار الصحفي ، ووزعوهم على الغرف الباقية .

وظللنا على هذه الحال ثلاثةَ أيام ، شعرنا خلالها بكثيرٍ من الضيق والضجر ، فقلت لرفاقي : انني سأعلن العصيان على هذا التدبير . فقال لي ميخائيل : دعك من المشاكل . فقلت له : سأجبرهم على فتح الباب مهما كلف الأمر .

وطلبتُ ان أخرج لقضاء حاجةٍ لي ، ولما رجعت لم أدخل الغرفة ، بل جلست عند الباب وتركته مفتوحاً فقال الحارس : ادخل الى غرفتك فأجبته لن أدخلها ، هل نحن جناة أم سياسيون ؟ فقال لي : بلهجة رقيقة : لا أستطيع أن اصنعَ شيئاً لأنني أؤمر فأنفذ الأمر . فبقيت مصراً على عدم دخول الغرفة ، فأعلموا القائد ، فجاء وطلب إليَّ ان ادخل الغرفة المعدة لنا ، فأبيت وقلت له : لسنا من الالمان ، وإنما نحن سياسيون ، وهذا المكان محاط بالحراس ، وليس لنا أجنحة لنطير بها من هنا . وكان القائد رجلاً طيباً ،

فطلب إليَّ بلهجة لطيفة أن ادخل ريثما يأخذ موافقة رئيسه ، فذهب وعاد بعد قليل ، وأمر ان يظلّ باب الغرفة مفتوحاً ، ليتاح لنا أن نتجوّل داخل « العنبر » كما نريد .

وسألتُ فاخر بك عن اخيه احسان بك ، فأخبرني انهم اخذوه الى المستشفى ، لأنه ادعى انه مريض . ومرت عشرة أيام أطلقوا في نهايتها سراحنا ، فعجبت لذلك وسألت عن السبب الذي جعل الفرنسيين يعيدون إليَّ الحرية ، ففهمت ان احسان بك أوعز الى زوجته التي كانت تزوره في المستشفى ، ان تبعث الى الجنرال ويغاند برسالة باسمه تقول له فيها انه واخوانه ليسوا جواسيس ، ولكنهم يعملون لاستقلال بلادهم ، وبما ان الحرب قد نشبت ، فمن الطبيعي ان تقع بين الفرنسيين وبين الوطنيين هدنة ، لذلك يرجى اخلاء سبيله وسبيل اخوانه .

ولقد حالت الحرب ، دون قيامنا بالعمل السلبي ، الذي قررناه في اجتماعنا برويسات صوفر ، فبقينا ساكنين مسالمين .

وعندما أعلنت ايطاليا الحرب على الحلفاء تضامناً مع ألمانيا ، عاد رجال الأمن العام واتحفوني بزيارتهم مع طلوع الشمس ، وأيقظوني من النوم وقالوا تفضل . فقلت لهم : أكلما اشتركت دولة مع الألمان في الحرب تفكرون فينا ، وتأتون الينا لتزجونا في ظلمات السجون ؟!

وفي هذه المرة ادخلوني الى خان استنبول ، ثم جاءوا بفاخر الجابري واحسان الجابري وبالحاج احمد الاسود وبفهمي الحفار وبمصطفى فتاح البيطار وبطاهر سماقية صاحب جريدة « الوقت » وبالدكتور عارف حكمت وبالدكتور هراشدا كيان طبيب السكة الحديدية وبقرينته وبغيرهم ، ووضعونا في غرفة لا تتسع لأكثر من ثلاثة اشخاص . وبعد ان بقينا فيها يومين ، أتوا بسيارة شحن أرادوا نقلنا فيها ، فاعترضنا على ذلك . وبعد مشادة كلامية أتوا بسيارة اسعاف ، فركبناها انا وفاخر واحسان ، واركبوا الباقين في الشاحنة « الكميون » ، وسارت السيارتان الى لبنان .

في المنفى

عندما وصلنا الى جونيـــة ، توجهنا الى ريفون ، فوضعونا في دير «مار سركيس» ، ووضعوا علينا حراساً . وكان قد أوقف قبلنا الشيخ يوسف الخازن وتوفيق هولو حيدر من بعلبك ، ولم يكن هناك سرير للنوم ولا فراش ، ولكننا اهتدينا الى صاحب فندق «نبع العسل» ، فهيأ لنا الأسرة والأطعمة ، حتى كأننا نازلون في فندقه .

وعندما احتلَّ الألمان باريس ، رأى بعضنا أن نكتب عريضة نسترحم فيها إخلاء سبيلنا ، فكتبنا تلك العريضة ، ووقعها الموقوفون . أما أنا فقد أبيت توقيعها ، لما فيها من عبارات الاستعطاف .

وبعد مدة جاءت زوجتي برفقة أخيها ، فأوعزتُ اليها أن تستأجر غرفةً في فندق نبع العسل . وكانت في صباح كل يوم تأتي اليَّ ثم تعود الى الفندق . ثم جاءت الى الفندق زوجة احسان بك الجابري .

بعد مضي عشرة أيام على تقديم العريضة ، ورد أمر باخلاء سبيل الموقعين عليها ، على أن يقيم فاخر واحسان اقامةً جبرية في نبع العسل . وكان ميخائيل اليان اذ ذاك ، مقيماً في بيروت اقامة جبرية أيضاً . أما الباقون ، فقد اطلق سراحهم . على انني بقيتُ موقوفاً مع معلمة من بيروت .

وبعد اربعين يوماً ، ورد أمر بأن أقيم بريفون اقامةً جبرية ، وأن أتحمل نفقاتي كلها ، فقلت لهم : عندما كنت مقيماً في الدير ، هل انفقتم عليَّ شيئاً حتى تشترطوا هـذا الشرط ؟ وذهبتُ الى فندق نبع العسل ، حيث كانت تقيم زوجتي . وبقينا هناك الى ان جاء معتمد ايطالي عن الفرنسيين ، فأخرجونا ، فعدنا الى حلب .

في المنفى بدير مار سركيس في ريفون - لبنان عام ١٩٤٠
ويبدو في الصف الاول الى اليمين صاحب هذه المذكرات وبجانبه السيدة قرينة الدكتور
هراشد اقيان فاحسان بك الجابري وبقية المنفيين

دير مار سركيس بريفون - لبنان
حيث نفي صاحب هذه المذكرات وجمهرة من رفاقه المجاهدين

وكانت جماهير من الشعب قد علمت بقرب وصولنا الى الشهباء، فاحتشدت في محطة بغداد لتستقبلنا وترحبَ بقدمنا، وحين علم الفرنسيون بذلك انزلونا في محطة الشام بحلب.

وكان شبابنا يقظين، فاسرعوا الى محطة الشام، وبدأوا يحيوننا في ساحتها الخارجية. وكنتُ أولَ من خرج من باب المحطة، فأسرع إليَّ الشباب، ورفعوني ورفاقي على الأيدي، وبدأوا يحيون ويهتفون لنا.

وكان هنالك المسيو دوبيك مدير الأمن العام، وكان رجلاً لطيفاً يختلف عن سلفه، فجاء اليَّ وأنا محمول على الأيدي وقال لي: أرجو منك أن تبلغ هؤلاء الشباب، أن يكفوا عن هذه المظاهرات، لكيلا تقع حوادث بينهم وبين الجنود، لأنني لا أحبُّ حدوث أمور لا يمكن تلافيها.

ولم يسعني أمام ما لمسته من لطفه وأدبه، إلاَّ أن أنزل وأقول للشباب: يظهر أن هذا الرجل طيِّب، فلنذهب بهدوء. ثم ركبت عربةً أوصلتني الى البيت. وبعد ذلك ساد السكون مدةً، وكنا نعقد بعض اجتماعات خاصة.

وفي ذات يوم، بلغنا خبر مقتل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر في دمشق، فأسفنا امرَّ الاسف، على الراحل العزيز.

وذهبت يوماً الى بيت احسان بك الجابري، ولما دخلت غرفته، أبصرت سعدالله جالساً الى المكتب، واحساناً وفاخراً واقفين، وهما يقولان له: هذا لا يمكن أن يكون. فسألت عن الأمر، فقال لي احسان: ان سعدالله يرغب في تسليم نفسه. فاستوضحت عن جلية الأمر، فقال لي ان قنصل العراق أرسل يعلمهم أن جميل مردم ولطفي الحفار قد هربا الى العراق لأنهما متهمان مع سعدالله بقتل الشهبندر. والفرنسيون يريدون القاء القبض على سعدالله، ويستحسن أن يلجأ الى العراق، فالتفتُّ عندئذٍ الى سعدالله وقلت له: لستُ أشكُّ في براءتك، وان تسليم نفسك الى الفرنسيين

وهم الحاكمون ، خطأ كبير . فعليك أن تجدّ في السير الى العراق حالاً .
فقال سعدالله : كلا ، سأسلم نفسي . فقال لي احسان : خذه وسافر معه الى العراق . فقلت له : اني مستعد لذلك . وذهبت على الفور أبحث عن محمود سكر ، ليجد لنا دليلاً . ولما رأيته قلت له : احضر الدليل وانتظرنا في مقبرة الشيخ علي ، ثم رجعت الى منزل احسان بك وقلت لسعدالله : ان بقاءك هنا خطر ، فعلينا ان نغادر هذه الدار ، ونقصد بيت اخيك فؤاد ، على ان لا يرانا احد . فقال فاخر : ليس لدينا بنزين ، ولا نستطيع الحصول عليه . وكنتُ اعلم ان فؤاد الجابري يخزن هذه المادة ، فقلت : اننا نجد البنزين عند اخيك ، ونستطيع ان نأخذ حاجتنا منه ، ثم برحنا الدار الى بيت فؤاد ، وتزودنا بالبنزين ، وذهبت خلسة الى بيتي ، وطلبتُ ابن عمي شكيب ، وقلت له : أخرج من بيت حسني ، وتوجه بعربة الى قبور الشيخ علي ، وهناك ترى بدوياً ومعه محمود سكر ، فانتظرنا ريثما نأتي ، لاننا سنهرب الى العراق ، انا وسعد الله . وبعد ذلك ، ذهبتُ الى بيت عمي ، وكانت حماتي على فراش الموت ، وزوجتي عندها ، فناديتها وأخبرتها بما عزمنا عليه ، وودعتها وذهبت ، وكان كل شيء جاهزاً .

ولما ارخى الليل سدوله ، ركبنا سيارة سعدالله ، ترافقنا سيارة فاخر بك ، وذهبنا الى المقبرة ، ووجدنا الدليل ومحمود سكر في انتظارنا ، فأركبناهما وتوجهنا قاصدين بغداد .

في العراق

وصلنا إلى بغداد، فاستقبلتنا الحكومة العراقية، ورحبت بنا اجمل ترحيب. وفي اليوم الثاني، قابلنا الوصي على العرش.

ثم اجتمعنا في منزل وزير الخارجية، وكان يومئذٍ نوري السعيد، فأعلمونا بأنهم مستعدون ان يقدموا لنا كل ما نحتاج اليه للقيام بأي عمل. ثم اجتمعنا عند الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين، وكان الكيلاني رئيس وزارة العراق حاضراً فبحثنا في ذلك الاجتماع ان نقوم بثورة على سوريا، وان نستفيد من ضعف الفرنسيين، وان ننقذ البلاد من احتلالهم، وقد سبق ان انتدبنا عادل العظمة ليشترك مع فوزي القاوقجي الذي اقام في بغداد، بعد ان فشلت ثورته في فلسطين، على ان تعاوننا حكومة العراق والملك عبدالعزيز بن السعود. وقد فهمنا أنهم هيأوا ذلك، ولكنهم توقفوا عن العمل بسبب اعلان الحرب.

ولما تداولنا في هذا الأمر، رأينا الحاج أمين يعارض في قيام الثورة بسوريا دون فلسطين، ويرغب في أن تنشب الثورة في سوريا وفلسطين في وقت واحد، فاعترضت على ذلك وقلت: اننا لا نستطيع ان نلهب نار الثورتين معاً، فيجب أن نبدأ بالثورة السورية أولاً، حتى اذا كتب لنا التوفيق، عمدنا الى ايقاد نار الثورة في فلسطين. وعلاوة على ذلك، فاننا اذا قمنا بالثورتين معاً، فان الانكليز لن يقفوا مكتوفي الأيدي بل سيقطعون علينا الطريق لأنهم موجودون في العراق.

وبقيت الحال على هذا المنوال بدون أن نتوصل الى قرار قطعي. ولهذا فقد أخذنا نجتمع منفردين: أنا وجميل مردم وسعدالله الجابري ولطفي الحفار وعادل العظمة. وسألنا عادل بك عن تشكيلاته، فأخبرنا أنها جاهزة

ولكنَّ العمل يحتاج الى المال ، ولما سألته عن المعونة التي قدمها ابن السعود والعراق لزم الصمت .

وفي اليوم الثاني ، ذهبنا لعقد اجتماع ، وكان لطفي الحفار وعادل العظمة حاضرين . أما جميل مردم فكان غائباً ، فانتظرنا كثيراً ولكنه لم يأتِ . ولما سألناه في اليوم الثاني عن تغيبه ، قال لنا : ان اثنين من الضباط بلغاه ان من يصرُّ على ايقاد نار الثورة في سوريا مصيره القتل .

وبعد بضعة أيام ، دعينا للاجتماع في بيت نوري السعيد . وكان رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزارة حاضراً ، فألقى كلٌّ من نوري السعيد والكيلاني خطاباً ، ولكنهما تجاهلا وعدهما بشأن الثورة .

وفي رمضان دعينا لتناول طعام الافطار عند الوصي على العرش العراقي . ولما أزف موعد الذهاب ، دخلتُ غرفة سعدالله وقلت له : أراك جالساً ، ألا تريد الذهاب ؟ فأجابني : كلا لن أذهب مع جميل مردم ولو دعيتُ الى الجنة فقد كفاني ما لقيت منه . فقلت له : أفهم أنك مغتاظ من جميل ، ولكنني لا أفهم امتناعك عن الذهاب ، فاننا في غير بلادنا ، ولا أحبُّ أن يفهم القوم أن بينك وبين جميل بك مردم نفوراً . وبعد مجادلة رضي أن يذهب فذهبنا .

★

قال لي سعدالله يوماً : قم لنزور سفير ابن السعود ، فذهبنا وبدأ بيننا حديث مجاملة ، فقال له سعدالله : لما كان موسم الحج قريباً ، فانني أحب أن أؤدي فريضة الحج في هذه السنة ، لأن الفرصة سانحة . فقال له السفير الشيخ يوسف ياسين : لا بأس ، سأعرض رغبتكم على جلالة الملك ليدعوكم .

وما لبث أن تسلم سعدالله من الملك ابن السعود دعوةً الى الحجاز ، فقال لي سعدالله : تأهب للسفر ، فاعتذرت فأصرَّ عليَّ ، وبقيت مصراً على

الاعتذار . فذهب وحده وبقيت في بغداد ، حتى اوعز لعادل العظمة أن يقنعني وأن يحبب اليّ السفر .

وبالفعل فقد قال لي عادل العظمة : أرى ان تسافر الى الحجاز ، فان ابن السعود كريم ، وهو سيقدم اليك هدايا ثمينة. فقلت له : لا أشك في كرمه ، ولكنني أرى أن أبقى هنا ، عسى أن يجدَّ شيء يتطلب وجودنا في العراق أو في سوريا .

وكنت يوماً عند جميل بك مردم ، وكان لطفي الحفار موجوداً . وفجأة دخل نوري السعيد من حيث لا أشعر ، وغطى عينيَّ براحتيه . ولما رفع يديه عني قال لي : فهمت أنك تحبُّ العودة الى حلب ، وانني ساعٍ لتحقيق رغبتك .

ومر على ذلك بضعة أيام زارني في نهايتها قنصل فرنسا ، وقال لي : علمتُ أنك تريد الرجوعَ الى حلب . فقلت له : طبعاً . فقال لي : قد تحتاج الى المال ، وأنا مستعد أن أقدمه لك . فقلت له : شكراً ان في حوزني ما يكفيني للوصول الى حلب ، فقال لي : سأرسل لك جواز سفرك . ولم يلبث ان أرسله اليَّ فتوجهت الى الشهباء .

استرحتُ بضعة أيام في حلب . وخشية أن يمهد المندوب المسيو دافيد الى عمل ما ، أخذتُ عائلتي وسافرت الى دمشق ، وأقمت في فندق « اوريان بالاس » . وكان يدير الحكومة السورية مجلس مديرين برئاسة بهيج الخطيب . وكانت قضية مقتل الشهبندر قد فصل فيها القضاء ، واثبت براءة سعدالله الجابري وجميل مردم ولطفي الحفار فعادوا الى دمشق .

ولقد قضيتُ في دمشق مدةً طويلة . وسمعت ذات يوم ، أن الانكليز وجيش فرنسا الحرة سيحتلون البلاد . وبالفعل ، فقد هتف لي جميل مردم بك ، وطلب إليَّ ان أقابله ، فذهبتُ اليه ، ففتح خزانته الحديدية ، وناولني تحريراً وقال لي : لقد حمل إليَّ هذا التحرير محمد المفلح نائب حوران ، وقد تسلّمه من القائد الانكليزي الذي سيحتل البلاد ، فسألته : وماذا يطلب

القائد منا ؟ قال : انه يؤكد ان استقلال بلادنا مضمون ، وانهم لا يريدون بنا أذى ، وهو يرغب ان نتسلّم الحكم على هذا الاساس . وفوق ذلك ، فانهم لا يطلبون معونتنا ، ولكنهم لا يريدوننا ان نخاصمهم .

وسكت جميل مردم لحظة ثم قال : لستُ مستعداً ان اجيب على هذا الكتاب . فقلت له : ولماذا ؟ قال : لأنني لا احب ان اكون موضع انتقاد .

وكنت أعرف ان الحالة ليست على ما يرام بين شكري بك وبينهم ، فقلت له : دعني اخبر شكري بك بذلك ، ليجمع الاخوان ولنبحث الامر معاً . قال : افعل ما تريد .

وذهبت من توّي الى شكري بك ، وفاتحته بهذا الشأن ، فرفض وقال : نحن لا نتسلم الحكم ، إلا عن طريق المجلس . وكان يقصد في كلامه المجلس الذي عطل بدون ان يحلّ . فقلت له : يُستحسن ان نطلب الاخوان للاجتماع لنتداول بهذا الشأن ، فقد يوافق اكثرهم على تسلم الحكم . قال : حسناً . وكتب الى الاخوان ودعاهم الى اجتماع يُعقد في مساء ذلك اليوم .

وعقد الاجتماع ، ولكننا لم نتوصل الى اية نتيجة .

وفي احد الايام جاءني ندل الفندق وقال لي : ان ضياء الدين ابن الشيخ تاج الدين يريد مقابلتك ، فقلت له : فليأتِ اليّ . فلما دخل غرفتي بادرني بقوله : والدي يهدي اليك أرقّ السلام ، ويعتذر لعدم تمكنه من الترحيب بقدمك ، ويرغب اليك ان تقابله ليفاتحك بقضية مهمة ، فوعدته بمقابلة والده .

وفي اليوم التالي ، ذهبت اليه في الموعد الذي حددته له ، وكان جالساً في مكتبه ، فاستقبلني مرحباً وقال لي : انني أحبُّكَ واريد ان اتعاون معك . ولا اخفي عليك ان الفرنسيين عهدوا إليّ بأن اتولى رئاسة الجمهورية السورية ، على شرط ان يمنحوا سوريا الاستقلال . واني مهتم بتشكيل وزارة ، وأريد ان تكون احد اعضائها ، فاعتذرت له ، فألحّ عليّ فقلت له : انني اعرض

عليك قضية موافقة ، وأدلك على شخص يستطيع ان يقوم بتشكيل الوزارة كما يستطيع ان يخيب امل خصومك . فسألني عن ذلك الشخص فقلت له : انه الدكتور عبدالرحمن الكيالي . فقال لي : اطلب اليه ان يأتي الى هنا ، وإذا شاء فاننا نتقابل في شتورا ، فقلت له : عندما تعتزم ذلك سأدعوه الى مقابلتك هنا ، لا في شتورا .

وجئت الى الشيخ تاج الدين في اليوم الثاني ، فرأيته قد عدل ، فعرفت حالاً ان الفرنسيين غير موافقين على ذلك . وبينما كنا نتداول في هذا الامر قيل للشيخ تاج ، إن جميل بك الالشي يريد مقابلته ، فأمرهم ان يدخلوه الى غرفة اخرى ، فسألت الشيخ تاج ، لماذا أمر بادخاله الى غرفة اخرى ؟ فقال لي : انتَ عندي ، وقد لا تحب ان يراك هنا ، فقلت له : انا لا اخاف احداً ، فليبصرني عندك من يشاء . فأمر عندئذ الشيخ تاج بأن يدخل جميل الالشي . فلما دخل قال لي : أراكَ هنا ، فأجبته : وهل حُرم عليَّ ان ازور رئيسنا .

وكان جميل بك رفيقي في المدرسة الحربية باستنبول ، فالتفتُّ إلى الشيخ تاج وقلت له : حدث جميل بك بما جرى ، فقال لي : بل حدثه انت ، فبينت له انني أرى من المناسب أن لا ادخل الوزارة . وانه يستحسن ان يشكلها الدكتور الكيالي ، فقال الشيخ تاج لجميل الالشي : إذا طلبت الى الدكتور الكيالي ان يؤلف الوزارة ، فهل ترضى ان تكون احد اعضائها ؟ هنالك وقف جميل الالشي وأقسم بأنه سيدخل الوزارة المذكورة ، ثم قال : ان اقتراح جميل ابراهيم باشا موافق جداً . وفي اليوم التالي دعاني الى تناول طعام الغداء على مائدته . ولما رأيته قد أعرض عن اقتراحي ، انقطعتُ عن زيارته .

علمت بعد بضعة أيام ان حسن بك الحكيم كلف بتشكيل الوزارة ، وكانت العقدة التي ينبغي حلها إدخال وزير من حلب . وقد سعى الشيخ تاج وحسن الحكيم كثيراً في هذا السبيل ، ولكن لم يوافق أحد على الاشتراك في الوزارة ، حتى خطر لهما انني أحول دون دخول شخص حلبي فيها . ولهذا فقد جاءني الاستاذ نصوح بابيل ، وسألني لِمَ أعرقل عمل الشيخ تاج ، واحول

دون تشكيل الوزارة . فأقسمت له انني لم اتدخل في هذا الامر ابداً ، فقال لي نصوح : ان الشيخ تاج قد احضر محمد خليل المدرس ، وكلفه بدخول الوزارة فرفض ، وان محمداً المدرس هو الآن عند الشيخ تاج ، فاذا كنتَ تريد أن تبرهن على عدم تدخلك ، فما عليك إلا ان تقول للمدرس أن يدخل الوزارة ، فقلت له : انني مستعد ان أبرهن على ذلك ، وقمت حالاً وذهبت الى بيت الشيخ . ولما دخلنا باحةَ الدار ، سأل نصوح بعض من كان هناك ، عما اذا كان محمد خليل المدرس قد ذهب ام انه لا يزال باقياً ، فقالوا له انه ذهب . فقال لي نصوح : هيا بنا إلى فندق أمية . وركبنا سيارة أوصلتنا الى الفندق المذكور ، ولما سألنا عن السيد المدرس ، علمنا انه عاد الى حلب . فالتفتُّ الى نصوح وقلت له : هل آمنت الآن بأنه لا دخل لي في هذه القضية ؟ .

لم يكد ينقضي يومان على ذلك ، حتى علمت أن الوزارة قد تشكلت برئاسة حسن بك الحكيم . وقد اشترك فيها من حلب حكمت الحراكي . ثم علمتُ أن بهيج الخطيب قد توجه الى المعرة ، واقنع حكمت بك ، الذي لم يكن يعلم بأن الحلبيين يرفضون دخول الوزارة .

وظلَّ بهيج الخطيب يعمل على اقناع حكمت ، حتى أتى به الى دمشق ، وعهد اليه بوزارة الاعاشة .

وجاءني مرة يحيى حياتي بك ، وقال : انا نحب أن نصالحك مع حسن بك الحكيم ، فقلت له : ان ما بيننا لا يحتاج الى مصالحة . قال : يجب أن نذهب معاً ونهنئه بتسلمه رئاسة الوزارة . وذهبنا اليه ، فنهض من مكانه واستقبلنا أحسنَ استقبال ، وقال لجلسائه ، وكان اكثرهم من حوران وجبل الدروز وهو يشير إلي : هذا جميل ابراهيم باشا الرجل الذي أعجبت البلاد بأخلاقه وحسن نضاله . ألا لعن الله ابناءَ السوء الذين كانوا السبب فيما حدث بيننا من سوء تفاهم . ثم وجَّه كلامه إليَّ وقال لي : هذا المقام رهن إشارتك . فشكرت له حسن ظنه بي ، وأثنيت الثناء العاطر المستطاب على ما أبداه نحوي من لطف ورقة وتقدير .

وعندما شغل الانكليز فندق « اوريان بالاس » ، اضطررت الى ان انتقل الى فندق آخر . ولكنني مللتُ فتوجهت إلى حلب . ومرت عليَّ مدة وانا بين أهلي واخواني .

وفي أحد الأيام تلفن إليَّ منير العجلاني وكان أمين سر الشيخ تاج ، وقال لي : ان فخامة الشيخ يريد مقابلتك . فسافرت الى دمشق ، ولما قابلته قال لي : اعتقد انك أبيت دخول الوزارة لأنها برئاسة حسن بك . اما الآن ، فاني أنوي أخراجه منها لأعهد بها إلى زكي بك الخطيب ، الذي كان أحد اعضاء الكتلة الوطنية . فكل ما أطلبه منك ، ان تقبل بما سبق ان عرضته عليك . ولكنني عدتُ فاعتذرت . وفهمت من منير بك ، أن حسن بك لا يرغب في الاستقالة ، وانه رفض أن يذعن للشيخ تاج ، ولكن الشيخ اقنع الوزراء ، وفي جملتهم زكي الخطيب ، أن يقنعوا حسن الحكيم بالاستقالة ليشكلها الخطيب ، وقد تمَّ بينهم الاتفاق على ذلك . ولما عرفت هذه الامور ذهبت الى حسن بك وأطلعته على الوضع ، فقال لي : انني باقٍ هنا . فقلت له : انني لا احب لك الفشل . ولما كنتَ ذا ماضٍ شريف ، وقلبٍ عفيف ، فاني أصرُّ عليك أن تخرج من الوزارة من تلقاء نفسك ، فقال لي : كن مطمئناً فقد أنذرته بذلك . وحينما نفذ الشيخ فكرته واستقالت الوزارة ، عهد برئاسة الوزارة الى حسني بك البرازي .

وبقيت في دمشق لأرى نتيجة هذه البلبلة . ولكنني علمتُ ان الحكومة قد بدأت بالقاء القبض على اناس لا علاقة لهم بنا . وقد كان في طليعة الموقوفين ظافر الرفاعي ورشاد برمدا وأحمد قنبر وسعيد البصمهجي وعبدالوهاب سماقية ورمزي آلاجاتي وفهمي الحفار الذي لم تكن له علاقة بهم . وكان هؤلاء قد ألفوا حزباً غايته التعاون مع الألمان .

وعدتُ إلى حلب ، وما كدت أقضي بها اسبوعاً ، حتى لقيني ابن القنواتي ، وأخبرني أن في نية الحكومة أن تلقي عليَّ القبض . وطلب إليَّ ان اختبىء . وجئت إلى بيتي فسمعت أخي الدكتور يخبرني بما أخبرني به ابن القنواتي ، ولكنني لم اكترث للأمر .

في المنفى أيضاً

وفي فجر اليوم التالي ، ألقيَ القبض عليّ وعلى احسان بك الجابري ، ونُقلنا الى بيروت ، فرأينا بين من أوقفوا احسان السباعي الذي تلقى دروسه في المانيا . وفي بيروت ، قادونا الى دائرة الأمن العام ، فقال مديرها : اذهبوا باحسان بك الى فندق النور ماندي ليقيم فيه إقامة جبرية . أما الباقون ، فاذهبوا بهم الى « الميه وميه » . فقلت لمدير الأمن العام : لقد أوقفتُ انا واحسان بك لفكرة واحدة ، فكيف تفرقون بيننا ؟ فقال لي : انه مريض ، فقلت له : وانا مريض ايضاً ، ولكن احسان بك رجل غني . غير انهم لم يكترثوا لقولي ، بل شاءوا أن يُركبوني سيارة شحن فرفضت ، فطلبوا إليّ ان ادفع اجرة سيارة خاصة ففعلتُ . ولما وصلنا الى معتقل « الميه وميه » أدخلوني الى منطقة تضم الحلبيين الموقوفين ، فلما رأوني فرحوا بي وقالوا : لقد كنتَ تقول انك « مسوكر » فأردت ان امازحهم ، فقلت لهم : أتعرفون لماذا أتيت الى هنا ؟ قالوا : لا . قلت : لقد جئتكم لأتجسس عليكم ، ولأخرج من بينكم بعد نحو خمسة عشر يوماً . فضحكوا ، وكأنّ إلهاماً ربانياً قد أوحى إليّ بهذا القول .

★

انقضى عليّ في معتقل « الميه وميه » ثمانية عشر يوماً جاءني بعدها الخفير ، وقال لي : انك مطلوب الى المكتب ، فذهبت فرأيت ضابطاً انكليزياً والى جانبه الترجمان ، فقال لي الضابط : اننا سنوجه اليك بعض الاسئلة ، فهل أنت مستعد ان تجيب عليها بصراحة ووضوح ؟

قلت : نعم ، تفضل بالسؤال .

وجلس وجلستُ فقال لي : هل ذهبتَ الى المانيا ؟ فأكدت له انني لا اعرف الألمان ولا الانكليز ولا الروس ولا سواهم ، واني ما زلت أخاصم

الفرنسيين من اجل استقلال بلادي ثم قلت له : اذا كنتم تشكون بقولي ، فما عليكم إلا ان تسألوا صديقكم نوري السعيد ، لأنه يعرف كيف كان موقفي حين كنت في بغداد .

على اثر هذه المقابلة جاءني بعد يومين شرطي وقال لي : انني مطلوب الى دائرة الامن العام . وكان على من يطلب لتلك الدائرة ان يحسب للأمر الف حساب ، لانهم كانوا يضربونه ويعذبونه ويلقونه في مغارة مظلمة . على انني تجلدت وقلت : لا يكون إلا ما يريده الله .

وفي صباح اليوم الثاني ، ذهبت الى مكتب السجن فقالوا لي : عليك ان تحضر سيارة ، فقلت لهم من يدفع أجرتها ؟ فقالوا لي أنت بالطبع . وتلفنوا فوصلت سيارة ، ركبتها وركب معي اثنان من رجال الدرك . ولما وصلنا الى دائرة الامن العام ، جلست انتظر المدير . وبقيت كذلك الى المساء . واخيراً وصل المدير ، فأدخلوني عليه فقال لي : لقد تقرر ان تقيم انت واحسان بك الجابري اقامة جبرية في « عينطورة » . فاضطررتُ عندئذ ان اعود الى « الميه وميه » لأجلب حوائجي . وقد كلفني ذلك ١٤٠ ليرة سورية ذهاباً وإياباً وعندما رآني اخواني في « الميه وميه » قالوا لي : أأفرجوا عنك ؟ وراحوا يضحكون ، فقلت لهم سترون غداً . ولقد قلت « غداً » لكي لا يضايقوني . وكان يخدمنا أحد الموقوفين فقلت له : خلسةً ، اذهب وهيء حوائجي واذهب بها الى المكتب ، ففعل ما امرته به ، فقمت وابتعدت عن رفاقي مسافة طويلة ، وقلت « وداعاً » اما انتم فابقوا هنا الى يوم القيامة ...

وسرت الى بيروت ، ومنها توجهت الى عينطورة ، فلم أجد فيها مسكناً . فصعدت الى « ريفون » ، وذهبت الى الفندق . وفي اليوم الثاني تلفنتُ الى رفيقتي ، وطلبت اليها ان تأتي الى ريفون . غير ان احسان بك الجابري ، قصد جونيه وطلب إليَّ ان اوافيه الى هناك ، لأن هواء جونيه معتدل جداً في اواخر الصيف ، وعندئذٍ عدتُ فطلبت الى زوجتي ان توافينا الى جونيه . ولم يمضِ يومان ، حتى وصلت رفيقتي يصحبها اخوها واختها وخادمتها .

وكنا قد تعرفنا على وجوه جونيه ، وفي طليعتهم ابناء الخازن الكرام. وبقينا مدة ونحن على احسن ما يرام من راحة وصفاء . ولكنَّ مدير الامن العام ، جاءنا في احد الايام وقال لنا : ان منفاكما عينطورة فلمَ انتما هنا ؟ فقلت له : لم نجد بيتاً في عينطورة ولا فندقاً . فقال يجب ان تذهبا الى عينطورة مهما كلف الامر .

ولما ذهبَ قلتُ لاحسان بك : سأبقى هنا فليفعل مدير الامن العام ما يشاء . ولكن احسان بك لم يشأ ذلك ، وجاء أبناء الخازن وقالوا لنا ، انهم قد وجدوا لنا مسكناً عند أمين الخليل مختار عينطورة ، فشغلنا نحن غرفة ، وشغل احسان غرفة . واتفقنا مع صاحب فندق جونيه ، على ان يرسل الينا الطعام ، وما نحتاج اليه من اثاث وأسرّة .

وبقينا على هذه الحالة ثلاثة اشهر . وفي أحد الأيام ، جاءني رجل أرمني كان يعمل عند الفرنسيين بحلب وسلّم عليَّ ، فأمرت له بفنجان من القهوة فقال لي : أرجو أن تعذرني لأنني عبد مأمور ، وقد ارسلني الفرنسيون اليك لأقول لك ، انه لا يجوز أن تقيم أنت واحسان بك في بيت واحد . فقلت له ، مادمنا أحراراً فاننا نستطيع أن نجتمع في كل لحظة ، ولو كان كل منا في بيت .

وأخيراً رأيت أن أنتقل الى بيت آخر . وكنا خلال اقامتنا هناك ، موضع الحفاوة والاكرام . وكان يزورنا كثيرٌ من مطارنة لبنان وكهنته ومن وجوهه وأعيانه . وكنا في كل أسبوع ، نذهب الى جونيه ، لنثبت أننا لانزال مقيمين في لبنان .

والحقيقة ، اننا لمسنا من اخواننا اللبنانيين اجملَ ألوان التقدير والحفاوة والاكرام ، ولم نشعر الا أننا بين اهلنا واخواننا واحب الناس الينا . فقد كان اللبنانيون الذين عرفناهم ، يقدرون العاملين المناضلين في سبيل الحرية والاستقلال ، والثائرين على الظلم والاستبداد .

وكنا في فصل الصيف، نقصد ريفون، لننعم بهوائهـا اللطيف، ومناظرها الطبيعية الخلابة، ومائها العذب النمير. وكنا نختلط بالمصطافين، وبينهم كثير من ابناء الخازن، ومن اخواننا الحلبيين واللبنانيين، وكانوا جميعاً ينظرون الينا نظرة الاجلال والاحترام، لأننا كنا على حد قولهم، من زعماء الحركة الوطنية، ومن دعاة السيادة والتحرر.

وفي عام ١٩٤٣، زارنا ونحن في منفانا، سعدالله الجابري وقال لي: لقد اتفقنا مع الفرنسيين على اجراء انتخابات يتبعها استقلال البلاد. فقلت له: لقد طلب الينا الانكليز قبل ان يدخلوا بلادنا ان نتسلم الحكم، فأبينا ان ندخل الحكم، إلا على أساس المجلس الذي لم يحلّ بعد، ولكنهم أبوا. ولقد أقسمنا على احترام الدستور، فكيف نرضى باجراء انتخابات جديدة؟. فقال: هذا ما استطعنا ان نتوصل اليه.

كنا لازال في المنفى، حين أعلن نبأ اجراء الانتخابات ومدة المباشرة بها، فعجبتُ كيف يرضى اخواننا بذلك، وفريق منا لا يزالون في المنافي والسجون.

ولكي أحرج الفرنسيين، أقنعت احسان بك بأن نتوجه معاً الى الكاتب بالعدل في جونيه ونرشح انفسنا للنيابة.

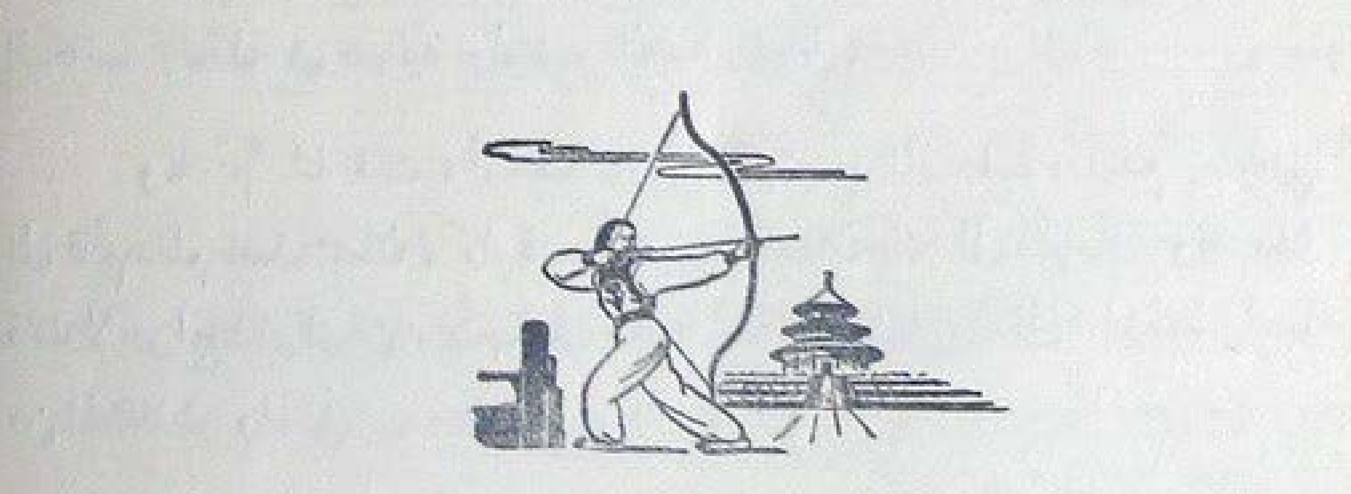
ولما تمَّ لنا ذلك، أرسلنا ورقتي الترشيح الى حلب، فقدم ترشيحي الى قائم مقام جبل سمعان، كما قدم ترشيح احسان بك الى المحافظ. وقد فعلنا ذلك لاحراج الفرنسيين، لأنهم في هذه الحالة، سيضطرون الى اطلاق سراحنا من المعتقلات والمنافي.

وعندما علم الفرنسيون بذلك، قامت قيامتهم، وعملوا مع سعدالله على سحب الترشيحين. وقد علمت بعد ذلك، أن الانقسام قد وقع بين الدكتور الكيالي وأخي من جهة، وبين سعدالله وجماعته من جهة ثانية، وبين رشدي الكيخيا وناظم القدسي من جهة ثالثة، فدهشت لهذا النبأ، وأيقنت أن الفرنسيين قد فازوا بما أرادوه، وأبعدوا عن المجلس أعضاءه السابقين.

وتوقعتُ أن يقع الشعب في أحضان الشك والحيرة . وفي الحال كتبت إلى أخي رسالة قلتُ له فيها : « أرجو ألاّ تكون سبباً في هذا الشقاق ، وعليك مع اخوانك أن تبقوا بجانب سعدالله ، وان لا تدعوا مجالاً يستطيع أن يفيد منه الفرنسيون » .

وكنتُ في بعض الأحيان ، أذهب الى بيروت مع رفيقتي . وذهبت في أحد الأيام الى العاصمة اللبنانية ، وزرت الأستاذ جبران تويني صاحب جريدة « النهار » فأعلمني أن فؤاد الجابري ونوري الجابري ، قد جاءا ليقابلا المفوض السامي بشأن سعدالله .

وجرت الانتخابات النيابية في حلب ، فخسر أخي وفاز السيدان رشدي الكيخيا وناظم القدسي ، كما فاز سعدالله الجابري . أما الشيخ عبدالقادر السرميني فقد خسر .



مغادرة المنفى والعودة الى سوريا

وفي الثلث الأخير من عام ١٩٤٣ ، أفرج عن احسان بك الجابري. وبعد نحو شهرين أفرج عني ، فتوجهت الى حلب .

وكان أخي قد قطع علاقته مع الناس ، لما رأى من خذلانهم اياه، فرأيت أن أسافر الى دمشق وأقيم فيها . ولم ألبث أن حققت فكرتي ، وغادرت حلب الى العاصمة السورية لأراقب الحالة السياسية عن كثب .

وقد اتضح لي بالتحقيق المتواصل ، ان الانكليز سيعملون على منحنا الاستقلال ، وعلى تسليمنا الجيش ، بعد اخراج الفرنسيين من سوريا ، على أن نعقد بيننا وبين الانكليز معاهدة ، تشبه معاهدة العراق ، وعلى ألا يتدخلوا في أمورنا الداخلية ، وأن لا يكون لهم في بلادنا قوى عسكرية . وقد رأيت أيضاً في خلال اقامتي في دمشق ، وتتبعي الأمور بدقة ، أن الادارة الحكومية قد بلغت درجة كبيرة من الفوضى ، وأن مصلحة الاعاشة لم تكن الا واسطة هينة لاملاء جيوب بعض اتباع المسيطرين على الحكم ، وكان السادة : شكري القوتلي وسعدالله الجابري ومظهر باشا رسلان ، يعلمون بعض ما يجرى في الخفاء من أمور لا يرضون عنها ، ولكنهم كانوا يسكتون على مضض ، خشية أن يحدثوا فجوة يفيد منها الاجنبي .

وفي اواخر سنة ١٩٤٤ ، دعاني سعدالله الى تناول طعام الغداء على مائدته . وبعد أن تحدثنا قليلاً قلت له : احب ان اصارحك ان خطتكم لن تنجح لأن اذناب الفرنسيين مشتركون معكم في الحكم ، فعليك ان تعمل على تنظيف الدوائر منهم . فقال : يا أخي ان هناك قانوناً لا يمكننا من ان نفعل شيئاً . فأجبته انكم تستطيعون ان تسنوا قوانين وان تلغوا قوانين ، لأن اعضاء المجلس يؤيدونكم . وعما قريب ستتسلمون الجيش ، فعليكم ان تعملوا منذ الآن ، على تشكيل جيش يقوده الضباط المتقاعدون ، الذين لا

يزالون ناقمين على الاجنبي ، لانه حال بينهم وبين خدمة بلادهم . فقال لي : هؤلاء الضباط أكل الدهر عليهم وشرب ، فقلت له : ولكنهم مخلصون على كل حال ، فضلاً عن انهم لن يحاربوا بذلك الجيش دولة كفرنسا او المانيا او انكلترا . وعندما تتسلمون الجيش ، يقتضي ان تسرحوه لانه صنيعة الفرنسيين. ولكنَّ سعدالله لم يأبه لكلامي .

بقيتُ في دمشق سنة واربعة اشهر ، ثم عدت الى حلب ، ولم أتدخل في اي شأن من الشئون . وبعد مدة ، بدأ الغليان بين الشعب ، وراح رشدي الكيخيا يؤلف حزبه ، ويجمع الناس من حوله . وبدأت مظاهرات الطلاب تملأ الاحياء ، وكان صياحهم يصل الى عنان السماء .

وفي هذه الاثناء ، مرض سعدالله ، وسافر الى مصر ليتداوى ، فعهد شكري بك الى جميل مردم بك بتأليف وزارة جديدة ، فألَّفها . وبعد مدة اصطدم الفرنسيون بالشعب اصطداماً عنيفاً ، فتدخل الانكليز في الامر ، وعملوا على اخراج المنتدبين ، وتسلمت الحكومة السورية الجيش .

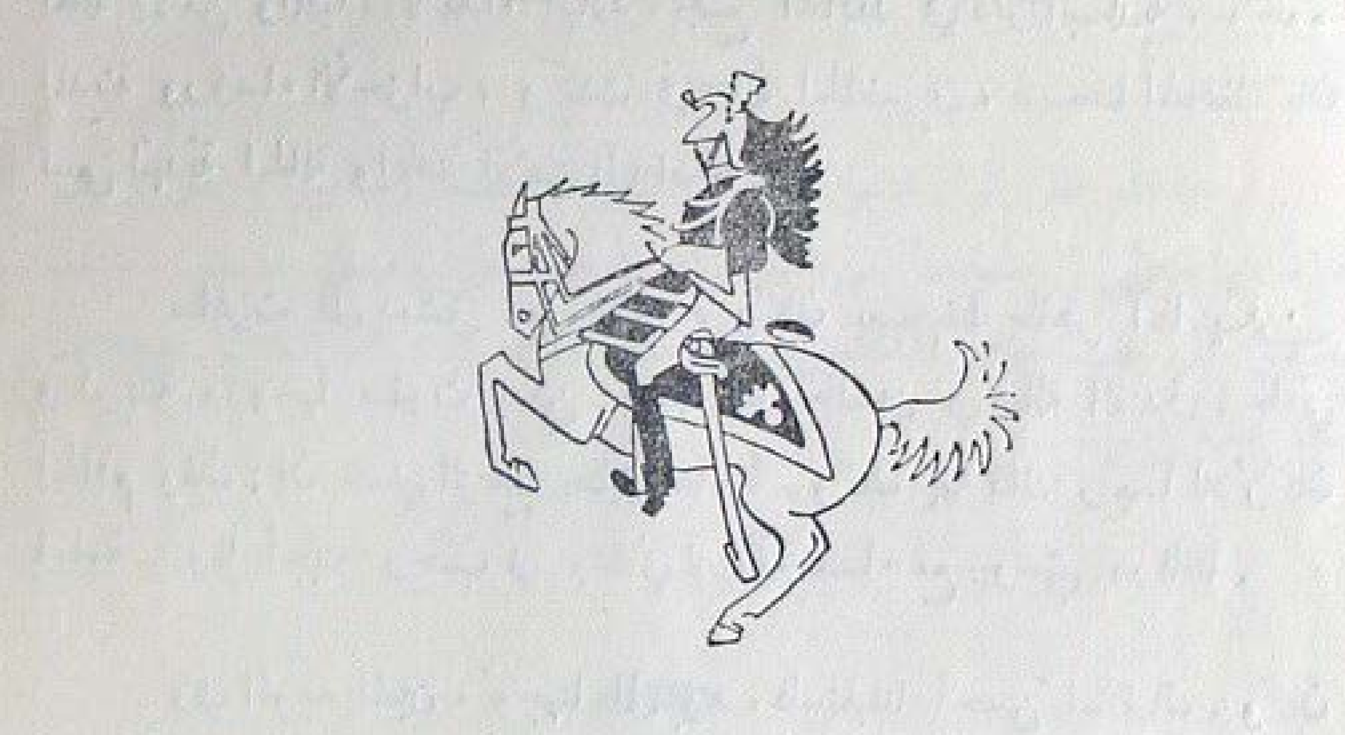
*

توجهتُ بعد مدة الى دمشق لمسألة خاصة ، فرأيت فيها حركات لم أرتح اليها . وكان كثير من الضباط في استياء من الحالة الحاضرة ، وكانت الحكومة تنوي تبديل عبدالله عطفه رئيس الأركان ، مع انه رجل مستقيم طيب القلب .

واتفق ان مررت من امام دائرة الشرطة ، وكنت قد سمعت بأن الزعيم حسني الزعيم قد عُين مديراً عاماً للشرطة . ولما كنتُ أعرفه حق المعرفة ، فقد دخلتُ عليه لاهنئه بمنصبه ، فرحَّب بي أحسن ترحيب ، وأمر الحاجب ألاَّ يدخل علينا أحداً . وفجأة رنَّ جرس الهاتف ، فرفع السماعة إلى أذنه وقال : نعم ، أمرك يا سيدي . ثم أرجع السماعة إلى مكانها . وبعد دقيقة واحدة ، رنَّ جرس الهاتف مرةً ثانية ، فكرر قوله السابق : نعم ،

أمرك يا سيدي. وظلّ الجرس يرن، وهو يجيب بجملته المعهودة اربع مرات. ثم وضع السماعة بشدة وقال: أهذا رئيس دولة أم مدير شرطة؟ إذا كان هو مدير شرطة فليأتِ وليجلس الى هذه المنضدة، وليفعل ما يشاء. فدهشت لما سمعت ورأيت.

ولما خرجت من عنده، لقيت نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» فحدّثته بما جرى، وطلبت منه أن يخبر شكري بك بذلك، ليكون من حسني الزعيم على حذر.



احداث عام ١٩٤٩

عدتُ إلى حلب ، وكانت مظاهرات الطلاب تتوالى وتشتدّ ، فأوعزت الحكومة الى حسني الزعيم أن يقصد حلب ، وان يعمل على تهدئة الحالة. ولكنه كان يحرض الطلاب بواسطة بعض معاونيه، على ان يتمادوا في مظاهراتهم.

وفي ذات يوم ، حاصر الطلابَ في مدرسة التجهيز ، وتظاهر بأنه يشدّد عليهم .

وكان حزب الشعب يحرّض الطلاب ايضاً ، حتى أتوا بأعمال متطرفة، فلم نرَ بداً ، من ان نلفت نظر المحافظ احسان الشريف الى هذه الأعمال المخلة بالأمن والمفيدة لأعداء البلاد . فجمع المحافظ في دار البلدية ، وجوهَ المدينة ورؤساء الأحزاب ، وكنت في جملة الحاضرين ، فنصحنا المحافظ بأن نسعى لتهدئة الحالة واعادة الأمن الى نصابه .

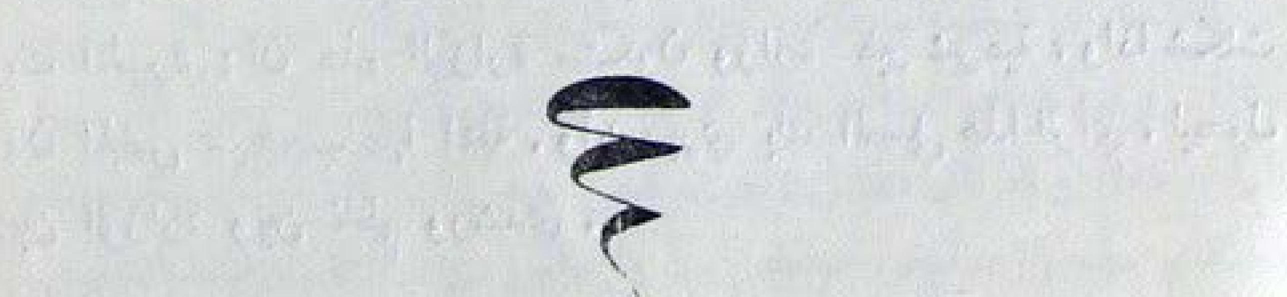
سافرت الى دمشق مع رفيقتي ، وكان بصحبتنا طاهر آغا يكن وكريمته وزوجها صفوت يكن . وبينما كنا جالسين في صالة الفندق ، جاءني الخادم وقال : ان حسني الزعيم يطلبني هاتفياً ـ وكان إذ ذاك رئيساً للأركان العامة ـ ولما أجبته رحّب بي ودعاني لزيارته مساء مع زوجتي ورفاقنا .

وفي الموعد المعين ، توجهنا الى بيته ، فاستقبلنا أحسنَ استقبال . وكان عنده الكولونيل انطوان البستاني . وبعد ان تحدثنا عن بعض الشئون ، احتدّ الزعيم حسني الزعيم وقال : إذا مكنني الله من احمد اللحام ـ وكان يومئذ أميناً عاماً لوزارة الدفاع ـ سأقطعه إرْباً إرْباً ، فعجبت لذلك وسألته : ولماذا؟ قال : ستعرف عما قريب . وبعد ان قضينا السهرة وخرجنا من عنده ، قلت لطاهر آغا : لا ريبَ ان في نية هذا الرجل شراً .

وبعد مدة كنا في صوفر وكنت جالساً في الاوتيل الكبير ، فجاء احدهم وقال لي : تفضل لنجلس معاً ، فقلت له : انني انتظر عودة رفيقي وعديلي مختار سوره . فجلس هو بجانبي ، وبعد ان تحدثنا عن الاحوال السياسية الحاضرة قال لي : كنتُ امسِ جالساً في هذا المكان ، وكان بالقرب مني ثلاثة ضباط سوريين ، ففهمت من حديثهم ، ان انقلاباً عسكرياً سيحدث قريباً في سوريا .

وبعد مدة ذهبت الى دمشق ، لملاحقة قضية كلفني اخي الدكتور بها . واتفق ان قابلت من اجل هذه القضية محسن البرازي ، وكان وزيراً للمعارف ، وكان يظهر لي كثيراً من الود والولاء ، لانه متزوج باحدى قريباتنا من آل الجابري . وكان من الطبيعي أن نتحدث عن بعض الامور السياسية ، فخطر لي وقتئذٍ ما سمعته في لبنان عن امكان حدوث الانقلاب ، فحدثت محسن بك عن ذلك ، وقلت له : يستحسن ان تنبه شكري بك ليكون من امره على حذر .

هنالك نظر إليَّ محسن البرازي نظرةً عميقة وسألني : هل رأيت فلاناً ؟ - وسمّى لي شخصاً من اخواننا - فأجبته نعم . وفهمت ما يعني . وعند عودتي الى حلب جاءني الشخص الذي عناه وقال لي : ان انقلاباً سيحدث بعد خمسة ايام .



الانقلاب الاول في عام ١٩٤٩

وفي صباح يوم ٣٠ آذار ١٩٤٩ ، بينما كنتُ نائماً ، دخل عليَّ ضياء ابن اخي الدكتور حسن فؤاد ، وأيقظني من رقادي وقال لي : إن انقلاباً قد حدث في دمشق ، وبدون ان افكر قلت له : أعرف ذلك . ولكن ما لبثت ان علمت ، انه قد القيَ القبض على شكري بك القوتلي ، فاغرورقت عينيَّ بالدموع ، وقلت : وا أسفاه ، لقد خسرنا الاستقلال ، ووقع ما كنت أخشاه .

ثم استعرضت ما سمعته في صوفر وما رأيته من محسن البرازي ، فعلمت ان الأمر كان مبيتاً .

ولقد تبين لنا ، ان الزعيم حسني الزعيم هو بطل الانقلاب . وقد سبق لمحسن البرازي ، ان أقنع شكري بك القوتلي ، بأن يعهد الى الزعيم حسني الزعيم بمديرية الشرطة العامة ، وانه هو الذي اقنع شكري بك ايضاً ، بأن يعين حسني الزعيم رئيساً للاركان العامة .

سافرتُ الى دمشق ، بعد أن أطلق سراح شكري بك وسافر الى مصر ، ثم كلف ناظم القدسي ورشدي الكيخيا بتشكيل الوزارة ، فقبلا ذلك . وعندها عقد النواب اجتماعاً في فندق « اوريان بالاس » ، فقال فارس بك الخوري : ان هذه الوزارة ستكون وزارةً غير شرعية ، واذا شكلت فان المجلس سيحجب عنها الثقة . وأيد صبري بك العسلي هذا الرأي ، ليحول بين الوزارة وبين ناظم ورشدي .

وفي هذه الاثناء ، زارني الشاعر عمر أبو ريشة ، وقال لي : ان حسني الزعيم يسأل عنك ، فلمَ لا تذهب اليه ؟ فأجبته لا علاقة لي به ، ولا غرض لي عنده فقال : أليس صديقك ؟ فقلت له : ليس بيننا صداقة متينة .

ولما ألحّ عليّ قلت في نفسي : سأذهب وألمس الحالة عن كثب .
وذهبت الى دائرة الأركان ، ودخلت غرفة سكرتيره ، وكان اذ ذاك
عديله نذير فنصة ، فرأيت كثيراً من الناس يدخلون عليه ، وفي جملتهم عبدالوهاب
حومد وعلي بوظو ومحمد مبارك . وإن اقل ما يقال في من رأيتهم ، انهم
غير متجانسين .

ولم تمض بضع دقائق ، حتى فُتح الباب وخرج منه حسني الزعيم
وقال لي : تفضل . وكان عنده أحد المطارنة ، فدخلت مع عمر ابو ريشة
وجلست . اما الزعيم ، فناولني سيكارة وطلب لي قهوة . ولما سألني عن رأيي
قلت له : لقد رأيتُ الآن ، أن الوافدين عليك غير متجانسين ، ولا يبعد
ان يقلبوا لك ظهر المجن . فلم يكترث لقولي ، بل نهض وقال : لقد وضعتُ
دمي في كفي ، فليفعل الله ما يشاء .

أعلن اجراء استفتاء لرئاسة الجمهورية . وبالطبع ، فقد فاز الزعيم ،
لأن الشعب لم يكن مخيَّراً . وبعد أن تسلم سدةَ الرئاسة ، عيَّن محسن
البرازي رئيساً للوزارة .

وكان حسني الزعيم ، قد دعا انطوان سعادة زعيم القوميين السوريين .
ولم يلبث سعادة ، ان قام مع اعضاء حزبه بثورة على لبنان . ولما
فشل ، التجأ الى سوريا ، ولكن رياض الصلح طلبه من الحكومة السورية .
وكان رياض الصلح ومحسن البرازي صديقين ، وكانت زوجة كل منهما من
أسرة الجابري الحلبية ، فأقنع البرازي أن يسلم انطوان سعادة الى حكومة
لبنان . وعندما سمع سعادة بذلك هرب الى شرقي الاردن ، وقبل أن يصل
اليها ، عدل وعاد الى دمشق ، حيث قبض عليه وسلم الى حكومة لبنان ،
فحكمت عليه بالاعدام ، وأعدمته رمياً بالرصاص . وهناك قامت قيامة القوميين ،
الذين ساعدوا حسني الزعيم على الانقلاب .

بعد بضعة أيام ذهبنا الى لبنان ، ثم عرَّجنا على دمشق ، فلقيني صحفي
يعمل في الجيش ، وكان يحبني ويحترمني . ولما سألته عن الحالة قال لي : ان

الوضع ليس على ما يرام ، وقد يحدث أمر مهم . والرأي عندي ان نبتعد عن دمشق . ولما اطلعتُ رفيقي على ذلك قالت : هيا الى بلودان ، فان صديقتي أميمة الأيوبي هناك ، وقد أرسلت تدعوني، ويستحسن أن نقضي في بلودان بضعة أيام .

فاستصوبت رأيَ زوجتي ، وتوجهنا الى بلودان . وفي اليوم الثاني ، وكان يوم خميس ، جاءني ذلك الصحفي نفسه ، واشار اليَّ بأن اتبعه . ولما فعلت ، أخبرني انه ستقام في بلودان حفلة ساهرة كبرى تحت رعاية الزعيم حسني الزعيم وزوجته ، وقد علمت أن هنالك خطة مدبرة ترمي الى اغتياله .

ولكنَّ مدبري تلك الخطة ، عدلوا عنها ، خشية أن تقع ضحايا بريئة.

وبعد منتصف ليل السبت ١٣ - ١٤ آب ١٩٤٩ ، هاجمت قوة من الجيش بيت الزعيم حسني الزعيم ، وبيت محسن البرازي ، فاعتقلوهما وقادوهما الى المزة حيث أعدما رمياً بالرصاص .

ثم تولى سامي الحناوي رئاسة الأركان ، كما تولى حزب الشعب مقاليدَ الحكم.

وحين اتضح لمن في الجيش وسواهم من القادة ، ارتباط حزب الشعب بالعراق ، بدأوا يحيكون المؤامرات لاجراء انقلاب .

وما هي إلا مدة وجيزة ، حتى أبعدوا الحناوي عن الجيش ، لحلَّ الشيشكلي محله . ولكنَّ حزب الشعب لم يقم بأي عمل ، بل ظلَّ في المجلس والحكم ، وراح الشيشكلي يدير دفة السياسة من وراء الستار .

وأبعد الحناوي إلى بيروت حيث قتل وحمل إلى دمشق ، فلم يسر أحد منهم وراء نعشه . ولم تمضِ مدة يسيرة ، حتى حسر الشيشكلي عن وجهه القناع ، فحل المجلسَ النيابي ، وأقصى الشعبيين عن الوزارات ، وتسلم زمام الامر بدون ان يلتفت إلى أحد .

*

زارني في أحد الأيام، نجيب عويد، أحد المجاهدين الذين عملوا تحت لواء الزعيم الخالد ابراهيم هنانو وقال لي ولأخي الدكتور: ان الشيشكلي قال له: ان حسن فؤاد وجميل ابراهيم باشا قد برهنا على تجردهما ووطنيتهما المتينة الصادقـــة، وانني مستعد أن اتعاون معهما، فمليك أن تبلغهما ذلك، ليحضرا إليَّ ولنتفاهم معاً. فما كدت اسمع ذلك، حتى أخذتني الحدَّة فقلت لعويد: لقد عملنا وضحينا كثيراً في سبيل المنفعة العامـة، ومن اجل نصرة البلاد واستقلال الأمة، ولم نعمل في سبيل الكراسي والمناصب والأموال. وقد انتهت مهمتنا، وعدنا الى بيوتنا، وليس في نيتنا أن نشترك مع رجل يعمل بوحي من سادته الفرنسيين.

بعد يومين دعاني موفق القدسي أحد ضباط الشيشكلي ومدير الشرطة والأمن العام. وعندما ذهبت لمقابلته، جاء موظف يحمل آلة لتسجيل الكلام. واستقبلني موفق القدسي ورحب بي وقال لي: لم أرَكَ من قبل. فقلت له: من طبعي أنني لا أزور أصحابَ المناصب العـالية، ومديري الشرطة، الا اذا كانت لي بهم معرفة سابقة، فقال: انني سعيد بمعرفتك.

وقبل أن يسألني عما كان يريده، دخل علينا قاضي الاحالة وجلس، فقال لي مدير الشرطة: لا بأسَ من أن أبين لك سبب طلبي اياك. لقد بلغني أنك تذم الحالة الحاضرة، وهذا أمر لا يجوز، لأنه يسيء الى الأمن. فقلت له: أرجو ألا تهددني فانـني إذا تكلمتُ، فانما ادافعُ عن استقلال بلادي، الذي ضحيتُ في سبيله كثيراً. وكيف تريدني أن أسكت، وأنا أرى مقاليدَ الأمور تسلم الى وزراء، لا همَّ لهم الا خدمة المستعمر عن طريق الدفاع المشترك، الذي فيه اعادة الاستعمار الى البلاد. ولهـذا ينبغي لي ولأمثالي أن ينبهوا الأفكار، ويلفتوا أنظار الشعب الى هذه الأخطار فقال: من اينَ لك هذه المعلومات؟ فقلت له: ان أمثال هذه الأمور لا تخفى على رجل قضى في السياسة عمره كله.

وكان قاضي الاحالة يشير الى الآلة من طرف خفي ، وينبهني الى عدم الافاضة بالكلام ، خوفاً عليَّ من أن ينتقم الشيشكلي مني . غير أن مدير الشرطة قال لي بلهجة لطيفة : أرجو أن تكف عن هذا الأسلوب اكراماً لي : وأنتَ تعرف أني أخدمك ، فان كنتَ أنتَ لا تعرفني ، فأنا اعرفك جيداً ، وأقدر مواقفك المشرفة في سبيل الأمة . فلم أرَ بدّاً من ان أجيبه على كلامه اللطيف بكلمة « تكرم » .

ثم طلبت منه اجازة تخولني السفر الى لبنان ، لأن السفر بيننا وبين القطر اللبناني الشقيق كان تابعاً لأذن من دوائر الأمن العام . وفي الحال أجابني الى طلبي ، وقدم لي الاجازة اللازمة .

سافرتُ الى لبنان مع رفيقتي ، وقصدنا مصيف سوق الغرب . وعندما رجعت الى حلب ، جاء الي س . د أحد جواسيس الفرنسيين ، وكان يظهر لي الحب والولاء وقال لي : لقد طُلبتُ لأعمل عند الشيشكلي فرفضت . فقلت له : أرى أن لا ترفض ، لأننا قد نستفيد من وجودك عنده ، فقال : لقد قبلت أخيراً لكثرة ما لقيته من اصرار الشيشكلي على طلبي . وقد كلفني الشيشكلي أن أستفهم عن سبب استياء الحلبيين من هذا الدور . وقد رأيتُ من المناسب ان اسألك اولاً . فقلت له : انني سأبين لك الاسباب على ان تنقلها عني للشيشكلي مباشرة ، بدون تحريف ولا نقصان . فقال : معاذ الله ان افعل ذلك . فقلت له : بل انني أصرّ على ان تنقل الى الشيشكلي ما اقوله لك . ثم قلت له : لقد تولى الشيشكلي حكماً غير شرعي ، ثم كمّ افواه الناس ومنعهم من إعلان الظلم والشكوى . ولم يكتفِ بذلك ، بل ماشى الاجنبيَّ ، وعمل على تمهيد الطريق امام الاستعمار . وهذه الامور كلها ، تسبب استياء الشعب ، حتى إذا اتيحت له الفرصة ، عمل على قلب هذا الدور رأساً على عقب .

وفي الحقيقة ، فقد بدأ التذمر العلني ، وعقدت الاجتماعات المناهضة لذلك الدور . وفي احد الايام ، دعيت لتناول طعام العشاء على مائدة قنصل

العراق عبدالرسول الجمالي .

وكان في جملة المدعوين ، الدكتور توفيق احمد الانصاري ومحمد سعيد الزعيم وفؤاد الجابري والدكتور صبحي غازي وسامي الكيالي . ولقد ذهبت متأخراً الى دار القنصلية العراقية . وقبل أن أدخل الباب تصدّى لي اثنان من رجال التحري وقالا لي : ما الذي أتى بك في هذه الليلة الممطرة ؟ فعلمتُ عندئذ أن المكان مراقب ، وأن هذين الرجلين لم يشاءا أن يدونا اسمي بين أسماء المدعوين . غير أني لم أحفل بهما ودخلت .

ويظهر أن الشيشكلي عندما اطلع على أسماء المدعوين ، أمر بالقاء القبض عليهم . بيد أنه رأى قبل ذلك ، ان يسأل محمد سعيد الزعيم عن الغاية من هذا الاجتماع ، فتلفن اليه عند منتصف الليل ، وسأله عما حدث في ذلك الاجتماع ، وعن السبب في عقده . فأكد له محمد سعيد الزعيم ، انه اجتماع بريء ضمَّ جماعة من الاصدقاء ، وكلهم من الكهول والشيوخ . ثمَّ بيَّن للشيشكلي ، أن القنصل لا يفاتح أحداً من مدعويه بالشئون السياسية .

وامام ذلك ، عدل الشيشكلي عن توقيفنا ، واوعز الى قائد الموقع ، ان يدعونا ويطلب الينا ان لا نجتمع بقنصل العراق مرةً أخرى . وقد دعيتُ الى قيادة الموقع مع من دعي من رفاقي ، فقال لنا القائد : ان الاجتماع في هذه الأيام في قنصلية أجنبية أمر غير جائز . فنهضت وقلت للقائد : انا نأبى أن تقول ان القنصلية العراقية هي قنصلية اجنبية ، فان سوريا والعراق شقيقتان ، ونحن وابناء القطر العراقي اخوان في اللغة والدين والعقيدة .

وخشي الرفاق أن تسوء الحالة ، فقاموا وعملوا على تهدئتي ، ثم خرجنا . وعلى اثر ذلك ، نشأت بين قائد الموقع وبيني صداقة متينة .

الانقلاب على اديب الشيشكلي

وقويت المعارضة ضد الزعيم أديب الشيشكلي ، وبدأت الاحتجاجات تلو الاحتجاجات . وعلى أثر احتجاج قدمناه ، أمر الشيشكلي بالقاء القبض على بعض الموقعين على ذلك الاحتجاج . فازدادت النقمة ، فقدمنا احتجاجاً اكثر قوة وأعنف لهجة .

وعقب ذلك اجتماع عقده الأخ ليون زمريا مع بعض ضباط الجيش بحلب . وقد تمّ الاتفاق بين المجتمعين ، على ان يلقوا القبض على محافظ حلب ، وعلى قائد المنطقة ومدير الشرطة في موعد حددوه لذلك . ولكن مرّ الوقت المعين ولم يقوموا بوعدهم ، فعاد ليون زمريا وجمع اولئك الضباط ليلاً في أحد البساتين ، وسألهم عن السبب في عدم قيامهم بوعدهم ، فأخبروه انهم خافوا أن يقاومهم بعض اعوانهم ، وأن يفلت زمام الأمر من ايديهم . ولهذا فقد أرجأوا الانقلاب الى وقت قريب آخر . فقال لهم الاستاذ ليون زمريا : انني رب عائلة لا معيل لها بعد الله سواي ، فاذا كنتم تخافون ان تقدموا على هذا العمل ، فسأقوم به بنفسي . فتداول الضباط واتفقوا اخيراً على أن يوجهوا ضربتهم في تلك الليلة . فكتب لهم الأستاذ زمريا بياناً ليذيعوه بواسطة محطة الاذاعة بحلب . وقد تيسّر للضباط الأحرار ما ارادوه . وكان ذلك في الصباح الباكر من يوم الخميس ٢٥ شباط ١٩٥٤ فهرب الشيشكلي الى لبنان ، وتم الانقلاب بدون ان تراق نقطة دم واحدة .

وعلى اثر ذلك ، عقد اجتماع في دار هاشم بك الاتاسي في حمص ، وتداول المجتمعون في أمر تشكيل حكومة . وكان الشعبيون يريدون ان يتسلم هاشم بك الأتاسي رئاسة الجمهورية ، وأن يعود المجلس النيابي السابق الذي حله الشيشكلي . فوافقهم على ذلك صبري العسلي وميخائيل اليان ، ولكن ليون زمريا وقف معارضاً ، وبيّن بالحجج المقنعة ، والأدلة القاطعة ،

عدم جواز ذلك ، فلم يصغ اليه أحد ، فشكلت وزارة برئاسة صبري العسلي. واغتاظ ليون زمريا لهذا العمل ، ووقع نفور بينه وبين ميخائيل اليان ، الذي سايرهم في ذلك .

والرأي عندي، ان الأستاذ زمريا كان على حق ، وأن ما حدث يومئذ كان أمراً غير شرعي ، وكان يقتضي ان يحضروا الرئيس الشرعي شكري بك القوتلي ، لأنه صاحب الحق في الرئاسة . ولكن غرض الشعبيين كان الالتحاق بالعراق .



احضار الرئيس شكري بك القوتلي الى سوريا

بعد ان تمّ الانقلاب على اديب الشيشكلي ، نشط الرجال المخلصون ، للعمل في سبيل اعادة الرئيس السابق شكري بك القوتلي الى سوريا ، التي احبها واحبته كثيراً .

ولم يلبث أن تقرر ارسال وفد الى مصر ليأتي به . فاجتمعنا بدمشق ، وقررنا السفر .

والغريب في الأمر ، أن صبري العسلي وميخائيل اليان ، اللذين وافقا على جلب المجلس السابق ، واسناد الرئاسة الأولى الى هاشم الأتاسي ، كانا في طليعة المؤيدين المنادين باحضار شكري بك .

وصلنا الى الاسكندرية ، في اليوم التاسع من شهر نيسان ١٩٥٤ ، فاستقبلنا شكري بك استقبالاً حافلاً ، ورحّب بنا ترحيباً تجلّى فيه شوقه الى رفاق جهاده ، وابناء وطنه .

وفي اليوم الثاني لوصولنا ، عقدنا عنده اجتماعاً بحثنا فيه أمر عودته الى عاصمة بلاده . وكان شكري بك لا يرغب في العودة ، لأنه كان مستاء مما لحق به من اذى . وكان في كل اجتماع ، يصرّ على الرفض ، ويأبى الا أن يبقى تحت سماء مصر الشقيقة .

ولكنّ اعضاء الوفد ، وكلهم من اصحاب الكلمة في سوريا ، وعلى رأسهم ابطال الجهاد الوطني ، ألحوا على فخامة الرئيس القوتلي ، ان يعود الى عاصمة بلاده ، ليتولى قيادة الحركة الوطنية ، بعد أن تخلّص الشعبُ من حكم الشيشكلي .

وفي احد الاجتماعات ، قال لي فخامةُ الرئيس : اريد ان اراك على حدة . ثم حدّد لي موعداً قبل ظهر اليوم الثاني .

أعضاء الوفد السوري في مطار الاسكندرية يتوسطهم فخامة الرئيس الجليل شكري بك القوتلي

صاحب هذه المذكرات جميل ابرهيم باشا يتحدث الى فخامة الرئيس شكري بك القوتلي



الاول من اليمين صاحب هذه المذكرات جميل ابرهيم باشا يطلب الى فخامة السيد
شكري القوتلي الا يعود الى سوريا ليتولى فيها قيادة الحركة الوطنية
كما تولاها من قبل

وعند ما اجتمعت بفخامته ، سألني عن حقيقة الأوضاع القائمة في البلاد ، بعد زوال حكم الشيشكلي ، فأوضحت له الوضع بجلاء وتفصيل ، فأخذ يعطرني بفيض من الاسئلة التي إن دلت على شيء ، فانما تدل على ان الرجل الكبير ، لم يكن غافلاً عما يجري على مسرح السياسة السورية من الناحيتين : الحكومية والشعبية . ولكنه كان حريصاً على أن يعرف وجهة نظر الشمال السوري ، فطرح علي اسئلته ، لما يعهده فيَّ من صراحة واخلاص .

وبعد أنْ أوضحتُ له وضعنا الداخلي ، وخصوصاً في حلب ، شدَّ فخامته على يدي بحرارة وقال : ألا ترى معي أنَّ التريثَ الآن خير من التسرّع ؟ فقلت له : إنَّ رأي فخامتكم هو الرأي السديد دائماً .

وفي الاجتماع الاخير ، أعلن السيد القوتلي ، أنه سيرجع الى بلاده ، عند ما تصبح فعلاً في حاجة ماسة اليه . اما في الوقت الحاضر ، فان بقاءه تحت سماء مصر ، أجدى على البلاد من عودته السريعة .

ولم يسع أعضاء الوفد بعد ذلك ، إلاَّ ان يعودوا الى سوريا ، وان يعملوا بحسب ارشادات فخامته وتوجيهاته الحكيمة .

*

انقضت بضعة اشهر ، اتضح في خلالها ، ان مصلحة سوريا تقضي برجوع السيد شكري القوتلي الى دمشق ، ليواصل جهاده في سبيل امته وبلاده . فعاد الى الفيحاء مع اعضاء اسرته الكريمة ، فاستقبله الشعبُ استقبالاً حافلاً رائعاً ، دلَّ على تعلقه بالرئيس الجليل ، وعلى ما يكنّه الناسُ له من حبٍ وولاء .

وفي صيف ١٩٥٥ ، أخذت الاحزاب السياسية ، والكتل البرلمانية في سوريا ، تهتم اهتماماً جدّياً ، بقضية الرئاسة الاولى . وكان معظم النواب يميلون الى انتخاب فخامة شكري بك القوتلي ، رئيساً للجمهورية .

بيد ان فخامته أبدى ممانعة شديدة ، لانه كان يؤثر الابتعاد عن السياسة وتقلباتها واحداثها .

ولكنّ وجوه السوريين ، وكبارَ المشتغلين بالقضايا الوطنية ، وجمهوراً غفيراً من اقطابِ التجارة والصناعة والأدب ، وعدداً وفيراً من ممثلي الشعب ، اجتمعوا بفخامته ، ورجوا منه ان يتسلّم الرئاسةَ الاولى ، وان يقود البلاد الى ما تنشده من استقرار وسيادة .

وما زال الشعبُ يلحّ ويلحف ، حتى قبل فخامته بما اراده محبّوه وممثلو شعبه ، فرشحته الامة ، قبل ان يرشّح نفسه لرئاسة الجمهورية .

وفي الساعة الثانية عشرة ، من يوم الخميس الواقع في ١٨ آب ١٩٥٥ ، انتخب المجلسُ النيابي السوري ، فخامة السيد شكري بك القوتلي ، رئيساً للجمهورية السورية ، بأكثرية ٩١ صوتاً ، مقابل ٤١ صوتاً ، نالها دولة السيد خالد بك العظم ، رئيس الوزارة السورية سابقاً .

وهكذا ، فقد تسنّم فخامته ، سدّة رئاسة الجمهورية للمرة الثالثة ، وراح يواصل جهاده المبرور ، في سبيل هذه البلاد التي اخلص لها الحبّ ، ومن اجل تحقيق الوحدة العربية التي هي امنية كل عربيٍّ مؤمنٍ بعروبته . والحق ، ان فخامة الرئيس الاول ، قد رعى شعبه بكثير من العطف واللطف ، وعمل بمنتهى الجدّ والاندفاع ، على توحيد القلوب ، ونصرة الشعوب العربية المناضلة .

وفّقه الله ، ومدّ في حياته الغالية ، واوصل العرب الى ما ينشدونه من عزةٍ وكرامة ووحدة قومية شاملة كاملة .

انه عزّ وجلّ سميع مجيب ، وهو على كل شيء قدير .

الفهرس



انجزت مطبعة الضاد هذا الكتاب في ١٠ آذار ١٩٥٩